دراسات غربية

تشهد لتراث الإسلام

أ. د. محمد عمارة

شهادات غربية لتراث الإسلام

مُهداة :

- إلى الذين يعتزون بتراث أمتهم .
- وإلى الذين يهرفون بما لا يعرفون !.

جمع وتحقيق وتقديم

أ.د محمد عمارة

- ١ -

عوامل
تَفَوُّق الإسلام

شهادة العلامة
مونتجومري وات
تمهيد

هذه الشهادة الغربية، المنصفة للإسلام، وحضارته، وثقافته.. بل والمؤكدة على صدقه.. وعلى رقيه وتفوقه على الديانات الأخرى .. هي لواحد من أعمدة الاستشراق المعاصر، وأعمدة الثقافة الغربية المعاصرة: المؤرخ والباحث الإنجليزى، النصراني الأنجليكاني «مونتجومري وات Montgomery Watt» . (١٩٠٩ - ٢٠٠٦م).

وهو محاضر في اللغة العربية وآدابها .. ومتخصص في الدراسات الإسلامية الأكاديمية .. وفي علم الكلام الإسلامي.. وفي التاريخ الإسلامي .. وعميد لقسم الدراسات العربية في جامعة (أدنبرا) .. وحاصل على الدكتوراه في علم الكلام الإسلامي - بموضوع الكسب والجبر والاختيار .. وصاحب المؤلفات العديدة - ومنها: (عوامل انتشار الإسلام) سنة (١٩٥٥م) .. و(محمد في مكة) سنة (١٩٥٨م) .. و(محمد في المدينة) .. و(الإسلام والجماعة الموحدة) سنة (١٩٦١م).. و(محمد: النبي ورجل الدولة) .. و(الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر) سنة (١٩٦٩م).. إلخ.. إلخ.

وهذه الشهادة المنصفة للإسلام وحضارته وثقافته .. والمؤكدة على تفوق صدق الوحي القرآني قد جاءت ثمرة لدراسات «مونتجومري وات» للإسلام مقارنا بالديانات الأخرى - دراسات استمرت لأكثر من ثلاثين عاما - بدأت سنة (١٩٣٧م) - مع معايشة للواقع الإسلامي .. وحوارات مع العديد من علماء الإسلام .. حتى جاءت هذه الشهادة ثمرة لإبحار هذا العالم المرموق في بحار الديانات والحضارات والثقافات، في تاريخها المديد، وواقعها المعاصر .. حتى لقد جاءت هذه الشهادة - كما يقول هذا العالم المرموق: ثمرة لمراحل من التقدم والارتقاء نحو «نظرة حيادية لا تنحاز لأي من الدينين المسيحية والإسلام رغم مواصلة العيش على أرض الواقع المسيحي، ممارسا لما تفرضه المسيحية على من يتدين بها» .. مع ما استلزمه هذا الارتقاء وهذه الحيادية من معاناة وتوتر داخلي!.

وهو، في هذه الشهادة، يتحدث عن:

١ - الأهداف المتوخاة من كتابته عن الإسلام، مقارنا بالنصرانية.

٢ - ويقدم شهادة عالم نصراني غربي على صدق الوحي الإلهي كما تجسد في القرآن الكريم، وعلى تميز الوحي في القرآن عنه في التوراة والإنجيل .. وعلى صدق نبوة ورسالة محمد ﷺ.

٣ - كما يشهد هذا العالم النصراني الغربي على ثراء القرآن .. وجدته .. وأصالته .. وعلى أن جمعه إنما هو جمع إلهي .. وعلى الثقة بالنص القرآني المتداول بين الناس .. وعلى أن تعدد القراءات لبعض أحرف القرآن لم يؤثر في وحدة معاني النص القرآني .. وعلى مركزية القرآن ومحوريته في الثقافة الإسلامية.

٤ - كما يشهد للغة العربية - لغة القرآن .. ولسان الشريعة الإسلامية - باعتبارها لغة حضارة وثقافة راقية ومتميزة.

٥ - ويشهد لعالمية الإسلام .. وتفوقه .. ورقيه .. وبأنه منهاج شامل للحياة.

٦ - ويشهد - كذلك - على أن انتشار الإسلام، ووراثته للمسيحية - في الشرق - إنما يرجع إلى الضعف الذاتي الكامن في تلك المسيحية، وإلى فشلها في تلبية احتياجات الإيمان الديني الذي تطمئن به القلوب .. وذلك على العكس من التوحيد الإسلامي، الذي حقق تفوقا لا يجارى في هذا الميدان .. وعلى استمرارية هذا الفشل - المسيحي - في عصرنا الراهن، والذي يتخذ شكل تراجع المسيحية وتقدم الإسلام.

٧- كما يشهد على مكانة الإسلام، وعطائه المتميز في «دين المستقبل» .. وتفرده - دون الأديان الأخرى - في حل مشكلة العنصرية.

٨- وعلى نزعة التعصب في الحضارة الغربية .. وتمركزها حول ذاتها.

٩- وعلى خطر النظرة العلمانية على القيم والأخلاق.

١٠- كما يحدد - في شهادته هذه - شروط الحوار المثمر بين أهل الأديان.

يشهد «مونتجومري وات» على ذلك كله فيقول:

(١)

الأهداف

إن هدفي الأساسي هو:

* أن أقدم الإسلام بأفضل شكل مبسط للقارئ الأوربي والأمريكي الذي ينظر للأمور بمنظور ديني أو بمنظور علماني.

وإني أقصد بذلك أن أبطل مفعول الآثار الباقية من دعايات حروب العصور الوسطى (الحروب الصليبية). كما أني حاولت أن أجعل القارئ يتحقق، على نحو أفضل من ذي قبل، من أهمية الإسلام، التي تجلت طوال مئات السنين التي أعقبت حروب العصور الوسطى هذه.

* والهدف الثاني: هو أن أوضح للمسلمين أن الدارسين الغربيين ليسوا بالضرورة معادين للإسلام كدين. بل إنه من الممكن أن نجمع بين هذه الاتجاهات ..»[1].

---

(١) مونتجومري وات: الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر (ص٢٣). ترجمة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ. طبعة القاهرة. مكتبة الأسرة. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢)

الوحي القرآني

إن جزءا من أهداف هذه الدراسة هو تعريف المسيحيين بمفهوم الإسلام للوحي . وتعريف الذين لم يدركوا منهم حتى الآن أن الوحي الإسلامي مسألة لابد من تناولها بجدية .

إن القرآن الكريم ليس بأي حال من الأحوال كلام محمد ، ولا هو نتاج تفكيره ، إنما هو كلام الله وحده . قصد به مخاطبة محمد ومعاصريه . ومن هنا فإن محمدا ليس أكثر من « رسول » اختاره الله لحمل هذه الرسالة إلى أهل مكة ، أولا ، ثم لكل العرب . ومن هنا فهو قرآن عربي مبين . وهناك إشارات في القرآن إلى أنه موجه للجنس البشري قاطبة ، وقد تأكد ذلك عمليا بانتشار الإسلام في العالم كله ، وقبله بشرٌ من كل الأجناس تقريبا .

وهذه الفكرة نفسها عن « الوحي » اعتنقها مسيحيون كثيرون عبر القرون . فاعتبروا كلمات الكتاب المقدس هي كلمات الله نفسه ، إلا أنهم - عادة - لا يفترضون أن كلمات الله قد جلبها مصدر خارجي ممثل في ملك أو ملائكة يملونها على كتاب الأناجيل ، وإنما يلقى في روع هؤلاء الكتاب أن ما يكتبونه إنما هو كلام الله حقا . فالأنبياء الوارد ذكرهم في العهد القديم يعلنون دون تردد : « هكذا يقول الرب ... » لذا ،

فلابد أنهم كانوا يعتقدون أن ما ينطقون به من كلمات إنما هو بمعنى من المعاني كلمات الله حقا.

إنني أعتقد أن القرآن بمعنى من المعاني صادر عن الله. وبالتالي فهو وحي.

وكما رأى المسيحيون أن تاريخهم شهد «حوارا» بين المسيحية وبين العلمانيين المناهضين للدين. فإن هذا يعني أنه من المستحيل الاستمرار في الأداء بوجود «وحي» أو «رسالة» أو «ديانة» مسيحية دون الاعتراف «بشيء» من الصحة «للوحي» أو «الرسالة» أو «الديانة» الإسلامية.

والمنهج الذي أتخذه في هذه الدراسة. هو أن أصل بقدر ما أستطيع إلى مستوى الحقيقة الخالصة. ولن أتعرض للقرآن باعتباره من إنتاج محمد. وإنما باعتباره وحيا.

وكيف وصلت هذه الكلمات التي كونت التجربة الأولى إلى وعي محمد أو شعوره؟

إننا نؤمن بصدقه وإخلاصه عندما يقول إنها ليست نتيجة أي تفكير واع منه.

إن التجربة النبوية مع الوحي يمكن إيجاز ملامحها الرئيسية فيما يلي:

١ - محمد يشعر. وهو في حالة وعي. أن هناك كلمات بعينها تلقى في روعه أو تحضر في قلبه أو عقله الواعي.

٢ - وأن هذه الكلمات والأفكار لم تكن قط نتيجة أي تفكير واع من جانبه.

٣ - أنه يعتقد أن هذه الكلمات ألقيت في روعه (عقله) من قبل «مندوب» أو «مبعوث» خارجي يتحدث إليه كملك.

٤ - أنه يعتقد أن هذه الرسالة قادمة من الله - تعالى -.

هذه الملامح الأربعة الرئيسية موجودة في كل حالات الوحي كما وردت في القرآن الكريم.

إن الكلمات المنزّلة على محمد كانت تحضر في عقله الواعي، وإن تفكيره الشخصي لم يكن له دور في ذلك. وإن يقينا جازما كان يمتلك فؤاده بأن هذه الكلمات هي من الله.

لقد وجد محمد الكلمات أو المحتوى النصي حاضرا في وعيه، فلما تمت كتابته شكل النص القرآني الذي بين أيدينا. وكان محمد واعيا تماما أنه لا دخل لتفكيره الواعي في هذه الرسالة القرآنية التي تصله. وبتعبير آخر فقد كان يعتقد أنه يمكنه أن يميز (أو يفصل) بين هذه الرسالة القرآنية وبين تفكيره الواعي.. الأمر الذي يعني أن القرآن الكريم لم يكن - بأية حال من الأحوال - نتاج تفكير محمد. وهذا يعني أنه سيكون من الخطأ أن نقول. في مجال حديثنا عن آيات القرآن الكريم: إن محمدا قال.

إلا أن بعض الدارسين الأوربيين في الماضي تحدثوا كما لو أن محمدا قد فعل ذلك. وهذه الطريقة في الحديث

تدعو للأسف . فهي طريقة غير علمية . لم تضع في اعتبارها الملامح الأساسية الظاهرة لتجربة محمد في تلقي الوحي .

لكن في مجتمعنا المعاصر . الذي يسوده جو التداخل بين الأديان . يحسن بغير المسلمين أن يتجنبوا الحديث والتفكير على هذا النحو .

إن القرآن لا ينبغي النظر إليه باعتباره نتاج عبقرية بشرية .

وعندما تحدى محمد أعداءه بأن يأتوا بسورة من مثل السور التي أوحيت إليه . كان من المفترض أنهم لن يستطيعوا مواجهة التحدي ؛ لأن السور التي تلاها محمد هي من عند الله . وما كان لبشر أن يتحدى الله . وليس من شك في أنه ليس من قبيل الصدفة أيضا أن كلمة (آية) تعني علامة على القدرة الإلهية وتعني أيضا فقرة من الوحي .

ولو احتفظ يهود العصر ومسيحيوه بيهوديتهم ومسيحيتهم في حالة نقاء لاعترفوا بالرسالة التي ألقاها الله إليهم عن طريق محمد . تماما كما فعل « ورقة بن نوفل » (١٢ق.هـ / ٦١١م) (الذي أفادت الروايات أن استجابته كانت إيجابية لمحمد) . ومن هنا يمكن أن نقول : إن إشارة القرآن إلى « تحريف » لحق اليهودية والمسيحية « بصورتهما الموجودة أيامه » قول صحيح .. »[٢].

---

(٢) مونتجومري وات : الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر (ص ٣٤ . ٣٥ . ٣٩ . ٤٠ . ٥١ . ٥٥ . ٨٣ . ٢٠٦ . ١٧٠)

(٢)

ثراء القرآن .. وجدته .. وأصالته .. وحفظه ومحوريته في الثقافة الإسلامية

ثمة عدة نقاط تعد بمثابة عناصر أصالة وتميز في القرآن؛ نظراً لأن فكرة الوحي وتلقي الرسالة قد تطورت في القرآن.

إنه إذا اكتشفنا شيئا من عدم التناسق المنطقي Inconsistency في القرآن، فهذا دليل على ثرائه وخصوبته، ودليل على سمو مثمر (تجاوز) يعلو فوق الفكر المجرد العاقر، أو غير المجدي Barren Conceptual Thought

ومن هنا قد نجد (معنيين) أو (تقريرين) مختلفين Incositent لأن أحدهما فقط لا يعبر عن الحقيقة بشكل تام.

لقد شهدت بدايات القرن العشرين صرعة (موضة) تقديم القرآن للقارئ الأوربي باعتباره مختارات من أفكار اليهودية والمسيحية، بالإضافة لقليل من الزيادات المحددة، ومعنى هذا انتفاء الجدة والأصالة.

والواقع أن هذه النظرة تعد بقية من بقايا الدعاية المسيحية التي سادت فترة الحروب الصليبية عندما كان على أوربا الغربية - التي كانت ترتعد فرائصها من جيوش الإسلام - أن تقوي دفاعاتها برسم صورة زائفة عن الإسلام.

وإذا نظرنا للأمور بعيدة عن سياقها التاريخي، حتى بصدد

مجرد المقارنة بين القرآن والتوراة والإنجيل، لوصلنا إلى نتائج خاطئة. وعلى أية حال، فافتراض أن محمدا قام بدعوته في فراغ، أي دون مراعاة لظروف العالم وقتها، فرض غير علمي. عندما ننظر للقرآن والعهدين (القديم والجديد) في السياق التاريخي، نجد أن الأمور تسير في اتجاه آخر، أو تصل بنا إلى نتائج أخرى، أو تتخذ ملامح مختلفة. ففي العهد القديم - هو بدوره - لم يحدثنا من فراغ عقلي، إنما راعى الحياة العقلية والثقافية السائدة. وبالمقياس نفسه يجب أن ننظر إلى محمد ودعوته. فالرسالة الأصلية والجديدة لكل نبي هي تلك الرسالة التي تتواءم مع كثير من الأفكار، وتعبر عن نفسها باستخدام مصطلح هذه الأفكار السائدة، وتتعامل مع القضايا المعاصرة لها.

وهكذا يظهر القرآن أصالته، ولو لم يكن إلا هذه الاستجابة الفعالة لمتطلبات موجودة بالفعل لكفاه دليلا على الأصالة.

لدينا إذن أرضية ثابتة نقف عليها باطمئنان، أن القرآن لم يكن مجرد ترديد لأفكار يهودية ومسيحية، وإنما كان به إضافات تتسم بالجدة والأصالة.

يؤكد القرآن الكريم أن الرسالة التي حملها محمد لشعبه كانت هي نفسها الرسالة التي حملها الأنبياء الآخرون لشعوبهم، وعلى أية حال، فإن هذا التماثل ينطبق على

أساسيات الرسالة: كالإيمان بالله واليوم الآخر وبالأنبياء والملائكة والكتب المنزلة .. وحتى الأفكار التي اشترك فيها الإسلام مع اليهودية والمسيحية. فإنها قد اتخذت شكلا عربيا واضحا.

إن القرآن كان يمهد لانتقال مرن ناعم من الصور الراقية لأديان موجودة بالفعل لدين جديد (الإسلام).

على أن تفحص العلاقة بين القرآن والبيئة المكية أو العربية عامة .. يوضح لنا بجلاء أن رسالة الإسلام كانت ملائمة تماما للبشر الذين ظهر محمد بين ظهرانيهم ولم تكن مجرد عقائد سابقة (يهودية أو مسيحية).

وثمة ما يؤكد أن الإسلام كان بمثابة مستودع لدين إبراهيم في مرحلة نقائه الأولى .. إن القرآن يقرر لنا أن الإسلام هو دين مطابق لدين إبراهيم الخالص. وهو قول يستحق النظر إليه بجدية.

إن كلمة (جمع) «في الحديث عن جمع القرآن» قد استخدمت في آيات قرآنية مهمة ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ١٩ ﴾ (القيامة: ١٦ - ١٩).

ومن الممكن أن يكون التفسير الطبيعي لهذه الآيات أن محمدا ما دام يتبع تلاوة من يتلو عليه (جبريل) فإن الله

متكفل بجمع الآيات المتفرقة أو التي أوحى بها في أوقات مختلفة ليجعلها في سياق واحد.

وإذا لم يكن محمد هو الذي رتب القرآن بناء على وحي نزل عليه. فمن الصعب أن نتصور زيدا (زيد بن ثابت) (١١ق. هـ - ٤٥هـ / ٦١١ - ٦٦٥م) أو أي مسلم آخر يقوم بهذا العمل. ومن هنا، فإن كثيرا من السور قد اتخذت شكلها الذي هي عليه منذ أيام محمد نفسه.. إن القرآن كان يسجل فور نزوله، وقد جمع رسميا حوالي سنة (٦٥٠م).

ورغم كثرة القراءات، فإن أيا منها لم يؤد إلى جنوح معاني القرآن بحيث تجعلها بعيدة عن المعاني المفهومة من القراءات الأخرى.

والشيء نفسه يمكن أن يقال بشأن المصاحف السابقة على مصحف عثمان، فلم تكن الخلافات بينها وبين مصحف عثمان ذات شأن، بحيث تحدث ردود أفعال مختلفة في المجتمع الإسلامي.

ومهما كان الطريق الذي دخلت عن طريقه الثقافة اليونانية فإن المجتمع الإسلامي لم يقبل منها إلا ما هو مناسب وموائم لنسيج الحياة الإسلامية وللنظرة العقلية للعالم والكون التي يقرها القرآن. وبمرور الوقت تحقق

أن حياة المجتمع الإسلامي بشكل عام قائمة على استمرار القرآن وتبوئه مكان المركز أو القطب أو المحور.

ولقد أدت سهولة المواصلات وتطور الاتصالات السلكية واللاسلكية إلى أن أصبح إسلام المناطق البعيدة عن المركز متوافقا ومتوائما مع إسلام المناطق المركزية أو الوسطى...»[٣].

---

(٣) مونتجومري وات: الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر (ص٩٦، ٨١، ٩٨، ٩٩، ١٠١، ١١١، ١١٢، ١٠٤، ١٠٢، ١٠٥، ١١٠، ١٦٦، ٦٠، ٦١، ١٢٨، ٦٣، ١٧٦، ١٧٨).

(٤)

العربية : لغة حضارة وثقافة متميزة

إن اللغة العربية ليست لغة صحراوية بالمعنى الضيق للكلمة. فالروايات التي لا تخلو من الحقائق تخبرنا عن حياة زراعية باكرة قبل أن تشرع المنطقة في التصحر. كما تخبرنا عن انهيار نظام الري في اليمن وهجرة قبائل مختلفة من هذا اليمن الذي كان سعيدا.

وهذه التجارب لابد أن نفترض أنها تركت آثارا في مضامين الكلمات المختلفة. كما أن كثيرا من العرب ارتبطوا بالأعمال التجارية. فقد كان تجار مكة الكبار يتحكمون في القوافل التي كانت تتجه بانتظام إلى الشام وإلى اليمن. وارتبطت القوافل المتجهة إلى اليمن بطرق التجارة المتجهة إلى جزر الهند والمتجهة إلى شرق أفريقيا. وقد تركت هذه التجارة أيضا بصماتها على اللغة العربية.

وعلى هذا. فاللغة العربية قد ارتبطت بوسط ثقافي خاص يمتاز بكثير من الملامح التي تميزه عن الأوساط الثقافية الأخرى. وهذه الحقيقة ذات أهمية كبرى. خاصة في عالم متداخل الأديان. إنها تعني أنه لا وجود لإنسان معياري Standard Man أي أن هناك أنماطا كثيرة معيارية. يمثل كل نمط منها منطقة ثقافية حضارية محددة..[٤].

(٤) مونتجومري وات «الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر» (ص٦٥)

(٥)

عالمية الإسلام وتفوقه .. ورقيه

«إن الإشارة القرآنية «الخاصة» أو «اللصيقة» بالعرب لا تنفي أنه عالمي النزعة، أو ذو طبيعة عالمية، فالقرآن يخاطب البشر عامة، وليس الإنسان العربي في الوسط الثقافي أو الحضاري العربي فحسب .. وتلك حجة قوية؛ لأن الإسلام قد انتشر بالفعل انتشارا واسعا خارج نطاق الوسط الثقافي العربي بمعناه الضيق أو الأصلي، فاعتنقته أجناس مختلفة من أوساط ثقافية مختلفة.

إن رسالة الإسلام، التي وُجهت في البداية لأهل مكة والمدينة .. كانت تحمل في طياتها بذور العالمية، أو أنها كانت منذ البداية أو منذ مضمونها الأول ذات أبعاد عالمية.

إن القرآن يحظى بقبول واسع بصرف النظر عن لغته؛ لأنه يتناول القضايا الإنسانية.

ولقد كان إحكام النظرة العالمية للإسلام (كونه دينا عالمي النزعة) مما جعله يستوعب تراث المسيحية الباقي بين شعوب الشرق الأوسط التي كانت مسيحية، ومن هنا فقد أصبح المفكرون المسلمون هم حملة الثقافة العقلية لكل المنطقة ..».

لقد حاولت الحركة التبشيرية (المسيحية) الحديثة أن تخترق مناطق العالم الثقافية التي تسيطر عليها الأديان الأرقى. وقد رغب سكان هذه المناطق في التكنولوجيا الأوربية، وفي الجوانب المادية من الحضارة الأوربية، لكنهم - في غالبهم - في الوقت نفسه كانوا مرتبطين ارتباطا عميقا بدينهم الذي كانوا يشعرون أنه أرقى من دين الأوربيين.. ومن هنا فقد كان نجاح الحركة التبشيرية المسيحية في هذه المناطق محدودا تماما، فمعظم من تركوا دينهم في هذه المناطق ودخلوا دين الأوربيين لم يكونوا أصلاء، ولم يكونوا من صلب التكوين الثقافي الأصلي لبلادهم، وإنما كانوا من جماعات تعيش على هامش ثقافة بلادها، أو كانت لا تحظى بوضع اجتماعي مريح في نطاق هذه الثقافة السائدة.

وهناك اهتمام في الإحصاءات الإرسالية بعدد المتحولين للمسيحية، وبزيادة الأعضاء المنتمين للكنائس المحلية. والمسيحية في هذا الصدد تختلف إلى حد التناقض مع الإسلام، فرغم أنه دين دعوة كالمسيحية، إلا أنه أقل تباهيا بالداخلين فيه، فالمجتمع الإنساني يجذب أناسا إلى الإسلام لمجرد قبولهم كإخوة «في الإسلام»، وهذا الاتجاه لا يتخذه إلا أصحاب دين واثقون من دينهم ثقة عظيمة، ثقة لا تجعلهم يؤكدونها بالإحصاءات، بينما نجد أن المسيحيين الغربيين يمرون بأزمة ثقة في النفس...

«إن عبارة «إرادة الله أو مشيئته The Will Of God» موجودة في الديانتين (المسيحية والإسلام) لكن ارتباطها بحياة المسيحيين والمسلمين مختلف. فبالنسبة للمسيحي عادة ما تعني إرادة الله المفهوم المعنوي للإرادة The Moral Will كما تجلت في الوصايا العشر Command Ments أو تتجلى في الفطرة السليمة للفرد (الحدس أو البديهة) (فإرادة الله بالنسبة لي فيما يتعلق بعمل).

بينما نجد أن المسلم يطبقها على كل ما يحدث. فكل ما يحدث بإرادة الله ومشيئته. ومرة أخرى نجد أن الدين بالنسبة للمسلم يغطي تقريبا كل جوانب الحياة. بينما هو بالنسبة للمسيحي الأوربي العادي لا يغطي إلا جانبا يسيرا منها. مع أن كلمة «الدين» العربية هي المقابل لكلمة Religio الإنجليزية. إلا أن المفهومين مختلفان كما رأينا. لا يمكننا إذن عقد مقارنة. رغم أن الألفاظ واحدة. ومن هنا فليس ثمة معيار أو مقياس Criterion بسيط للفصل بين ما هو حقيقي صادق. وما هو زائف خادع.

لقد أكد الإسلام نفسه بالفعل كدين مستقل عن الدينين الأقدمين (اليهودية والمسيحية)، ونقول عن حق: «إنه بالفعل كان يفوقهما. أو أنه فعلا كان متفوقا عليهما، أو أرقى منهما ...»(٥).

---

(٥) مونتجومري وات «الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر (ص٦٧، ١٠٦، ١٣١، ١٨٨، ٢٢٣، ٢٢٦، ٣٣، ١٩١).

(٦)

فشل المسيحية في الشرق الأوسط

إن الجانب المهم في إنجاز الإسلام في الشرق الأوسط هو أنه حل محل المسيحية التي كانت محور الحياة الثقافية في هذه المنطقة. مناطق شاسعة كان سكانها في غالبهم يشكلون قلب العالم المسيحي، فأصبحوا يشكلون قلب العالم الإسلامي. إنه من الضروري أن نتمعن في أسباب هذا التغير بعناية.

لقد تحدثنا كثيرا - في هذه الدراسة - عن قوة الإسلام - وإذا كان علينا أن نحذو حذو «توينبي Arnold Toynbee، (١٨٨٩ - ١٩٧٥ م) - على أية حال - لقلنا إن السبب الجوهري هو الضعف الداخلي للمسيحية (أو ضعف المسيحية من الداخل، أو كون بذور الضعف في قلب المسيحية).

يتعين علينا أن نبحث عن جذور فشل المسيحية بمعالجة موضوع المسيحيين الشرقيين.. إن كثيرا من المسيحيين الشرقيين، خاصة اللاهوتيين منهم، استخدموا أيضا اليونانية في الكتابات الجادة، لكن طريقة تفكيرهم كانت بشكل أساسي بعقليتهم في لغاتهم الأصلية (السريانية، القبطية، الأرمنية... إلخ).

وقد أدى الاختلاف في العقليات إلى اختلاف في الصيغ اللاهوتية في قضايا مختلفة. وعندما كانت تطرح هذه القضايا اللاهوتية المختلف عليها أمام المجامع المسكونية (العالمية) كان (اليونانيون) يستبعدون المسيحيين الشرقيين (الناطقين باللغات آنفة الذكر) من حق التصويت. وبمرور الوقت وجد المسيحيون الشرقيون أنفسهم وقد اعتبرهم الآخرون هراطقة مخرفين، بل واعتبرتهم الإمبراطورية البيزنطية طريدي عدالة ومحرومين من حماية القانون.

وعندما تم طرد هذه الطوائف من الكنيسة المسيحية (للدولة البيزنطية) قامت هذه الطوائف بتأسيس عقائد تحاشت فيها الهرطقات الأكثر خطورة (ما اعتبره الآخرون هرطقات خطيرة). التي اتهمهم مناوئوهم بها. ولم يكن هذا كافيا لرأب الصدع بين الطوائف المسيحية. فقد تنامت لدى الأطراف المتنازعة الرغبة في عدم التوحد. ومن هنا كان طرد المسيحيين الشرقيين من الكنيسة ومن المجامع المقدسة على أساس أنهم (هراطقة) أدى إلى قيام المسيحيين الشرقيين بتأسيس منظمات كنسية منفصلة. وأدى هذا إلى إضعاف المسيحيين الشرقيين، والجهاز الكنسي الرئيسي (للدولة البيزنطية) على السواء.. وهكذا تحولت الخلافات اللاهوتية إلى شعارات سياسية.

لذا فعندما فتح المسلمون سوريا ومصر رحب بهم السكان باعتبارهم محررين لهم من سطوة اليونانيين

(البيزنطيين) الممقوتين .. وقد لخص «كريستوفر داوسون Ghristopher Dawson» (١٨٦٧ - ١٩٠٠م) بعض هذه النقاط، بأسلوبه الموجز المفعم بالمعاني، عندما قال: «إن محمدا كان هو إجابة الشرق على التحدي الإسكندر» (٣٥٦ - ٣٢٤ق.م) .. فقد كان محمد هو مؤسس الدولة الإسلامية التي سرعان ما اتسعت لتصبح دولة كبرى (إمبراطورية) أصبح لها ثقافتها الخاصة وحضارتها المتميزة في مواجهة الهيلينستية بوجه عام.

لقد دخل الإسلام إذن في منطقة لم تحقق فيها المسيحية نجاحا، أو لنقل إنها فشلت بالفعل. فالبلاد التي كان يسيطر عليها المسيحيون الشرقيون في وقت من الأوقات أصبحت الآن بلادا إسلامية عميقٌ إسلامها.

وعلى أية حال، ففي كل مكان تحول نسل المسيحيين الشرقيين إلى الإسلام. بل لقد تحول عدد كبير منهم أنفسهم، لا سلالاتهم فقط. ولا يمكن أن تعزو ذلك لمجرد الضغوط المادية والاجتماعية، كاعتبار المسيحيين في الدولة الإسلامية مواطنين من الدرجة الثانية. ولن يفهم المسيحي فهما كاملا ما حدث بالضبط إلا إذا أعد لتقبل حقيقة أن هنا - أي في هذه المنطقة - كانت المسيحية في وضع أقل (من الديانات الأخرى) أو بتعبير آخر، ربما كانت المسيحية في هذه المنطقة تحظى بقبول أقل. ربما

حتى من الناحية الروحية. أو على الأقل أنها نظرية مقبولة ظاهريا أن المسيحيين الشرقيين غدوا غرباء عن المسيحية.

لذا فمن المقبول ظاهريا أن نجد معظم المسيحيين الشرقيين قد تحولوا للإسلام؛ لأنهم وجدوا فيه تعبيرا عن التوحيد أكثر ملاءمة لعقليتهم الواضحة أكثر مما وجدوا في المسيحية.

بل أكثر من هذا؛ إذ يمكن أن نقول: إنه بينما فشلت المسيحية - على أساس من المفاهيم اليونانية - أن تقدم نفسها للعقول الشرقية، فإن الإسلام - على أساس من المفاهيم العربية - نجح في إحراز بعض التقدم بتقديم الأفكار اليونانية.

إنها لحقيقة معروفة جيدا أنه فيما بين القرنين التاسع والثاني عشر للميلاد قبل الوسط الثقافي والفكري الإسلامي كثيرا من الفلسفة اليونانية والعلوم اليونانية.

ومن نافلة القول أن نقول: إن هناك الكثير من الثقافة اليونانية نبذه الإسلام تماما، ليس أقله «التراجيديا اليونانية»، والإنجازات الكبرى في الخيال الشعري. وهذا الإهمال لا يمكن أن يكون مجالا للتركيز لتوضيح الفارق بين العقليتين....

إن تأثير المسيحية الفعلي، أو تأثير جوهر العقلية المسيحية يبدو في تناقص مستمر رغم محاولات التوسع

التي تقوم بها الحركة التبشيرية. وفي الوقت نفسه وجدنا «صحوة» أو «انبعاثا» أو «حركة نهضة» في معظم أديان العالم الكبرى الأخرى «غير المسيحية». بل وظهرت أيضا أديان جديدة. وإذا رجعنا للإسلام وجدنا زيادة في عدد معتنقيه في نطاق منطقته الجغرافية. بل وظهرت حركات دعوة للإسلام في أوروبا...»[6].

(٦) مونتجومري وات: الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر (ص١٧٩ - ١٨٣، ١٨٥ - ١٨٨، ٤٥).

(٧)

الإسلام هو الهيكل الأساسي لدين المستقبل

«في المستقبل .. ستكون هناك حركة بطيئة ستتمخض في النهاية عن ثقافة متجانسة للعالم أجمع. وفي مثل هذه الثقافة المتجانسة المنتشرة عبر العالم كله ستكون المقارنة الموضوعية بين الأديان أمرا ممكنا.

إنه في الحاضر والمستقبل المرئي، من الضروري أن نعرف أن الأديان الكبرى لدى كل منها ما يتمم الآخر. فكل دين من هذه الأديان صحيح في نطاق منطقة ثقافية خاصة. والأديان يكمل بعضها بعضا.

وعلى المدى البعيد - بطبيعة الحال - من المتوقع أنه سيكون هناك دين واحد للعالم كله، مع وجود اختلافات داخل نطاق هذا الدين الواحد. ويمكن تشبيه هذه الفروق الداخلية بالمذاهب الأربعة لدى المسلمين من أهل السنة. فهم جميعا مسلمون رغم اختلاف مذاهبهم.

ومعظم المسيحيين يميلون إلى افتراض أن المسيحية ستكون هي دين العالم في المستقبل .. لكن هذا أبعد ما يكون عن أن يكون أمرا مؤكدا. ولنذكر عنصرا واحدا، فبعض الأمم المسيحية تعاني بشدة من العنصرية، والدين

الذي لا يستطيع أن يحل مشكلة العنصرية بين أعضائه من المستبعد أن يكون قادرا على تقديم حلول كثيرة مجدية لمشاكل العالم الأخرى.

ومن بين مزايا الإسلام تعميقه لمفهوم الأخوة، وعمق حججه. إلا أن الثقة بالنفس، مصحوبة بعمق الحجج وقوتها قد تتحول إلى «عيب» وليس ميزة. عندما تعمي عين الإنسان عن رؤية ما هو جدير بالتقدير لدى الآخرين؛ لذا فقد يجد الإسلام صعوبة في إدراج قيم أخرى من أديان أخرى ليستوعبها ويجعلها جزءا منه.

والإسلام - بالتأكيد - مناضل قوي، ومنافس عظيم الشأن، سيعمل على مد الدين الواحد - دين المستقبل - بهيكله الأساسي ..»[٧].

(٧) مونتجومري وات: الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر (ص٢٢، ٢٣٧، ٢٣٨).

(٨)

تعصب المركزية الأوربية

إن الحضارة الأوربية (أو العالم المسيحي) كانت، ولفترة طويلة، تتصرف كما لو أنها الوحيدة التي تستحق الاهتمام. واعتبر الأوربيون أنفسهم هم وحدهم - من بين كل البشر - الجديرين بالاعتبار (ينظر الكتاب المعاصرون لحضارة أمريكا الشمالية باعتبارها امتدادا للحضارة الأوربية. ويرى آخرون ضرورة النظر إليها كحضارة مستقلة).

وفي القرن التاسع عشر كانت الثقافة الأوربية حضارة. وكلما تقدمت تكنولوجيا وسياسيا، أصبحت مناطق أخرى من العالم متحضرة. ونتيجة لهذه الفكرة أهمل بالفعل تاريخ الحضارات العالمية الكبرى قبل اتصالها بأوربا.

وعاملت الحضارة الأوربية أديان العالم المعاملة نفسها. فكانت تنظر إلى التطور الديني الرئيسي للجنس البشري من خلال نظرها للمسيحية، وإن كانت قد أعطت مساحة قليلة من الاهتمام لليهودية. وفيما عدا ذلك كان الأوربيون ينظرون إليه باعتباره غير متطور وبدائيا.. ومن هنا، فهناك افتراض مؤداه أن الأديان الأخرى الآن (غير المسيحية)، بما في ذلك الأديان الكبرى، سوف تخلي مكانها سريعا للمسيحية.

وقد يكون «الأبرشيون» Parishioners قد توارثوا فكرة أن كل من هم غير مسيحيين لا يزيدون عن كونهم أفضل قليلا من الجماعات البدائية التي لم تتعد مرحلة الهمجية، لكن أفكار هؤلاء الأبرشيين بدأت تنهار وتتساقط حولهم شذر مذر. إذ إنهم قد اكتشفوا أن غير المسيحيين يمكنهم أن يعيشوا حياة حضارية راقية، وأنهم مهتمون بعمق برفاهية أبنائهم، وأنهم يخضعون معتقداتهم لبناء عقلي، مثلهم في ذلك مثل المسيحيين.

لكل هذه الأسباب، فإن الحقيقة الكبرى المتمثلة في عالم متداخل الأديان، بسبيلها إلى التأثير في حياتنا اليومية بشكل متزايد.

وتحاول هذه الدراسة أن تتناول جانبا واحدا من قضية التداخل بين الأديان، وهو بالتحديد، العلاقة بين المسيحية والإسلام.

إن الإسلام منافس قوي للمسيحية في قيادة عالم اليوم - إن جاز لنا استخدام مثل هذه المصطلحات الاستراتيجية - ولابد أن نتحقق من أن كثيرا من عقائد الآباء عن تفوق المسيحية لم يكن في الواقع سوى مجرد اعتقاد في تفوق الحضارة الأوربية المادية. أما على المستوى الديني، فالحقيقة أن الإسلام كان دوما ندا للمسيحية، فالإسلام مثله مثل المسيحية لديه كتاب لعالمنا المعاصر[٨].

(٨) مونتجومري وات: الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر (ص٢٨، ٣١، ٣٤، ٣٥).

(٩)

العلم .. والعلمانية .. والقيم

إن المناهج العلمية لا تصلح لمجال «القيم Values».
وإن قبولنا للمنهج العلمي واعترافنا بجدواه يؤدي بنا إلى نظرة علمانية للعالم. حيث لا مجال للقيم الدينية والأخلاقية.

وكثير من المسيحيين الآن يقبلون كثيرا من جوانب هذه النظرة العلمانية للعالم. ويحتفظون في الوقت نفسه بعقائد دينية بعينها تبدو متناقضة مع نظرتهم العلمانية الآنف ذكرها، أو يؤدي وضعهما متجاورين - العقائد الدينية والنظرة العلمانية - إلى نوع من المفارقة.

ويشعر المتدينون من مختلف الأديان. بصعوبة الجمع بين النظرتين (الموقفين) بأشكال مختلفة[٩].

(٩) مونتجومري وات: الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر (ص ٣٢).

«إننا نطلب بشكل خاص جدا، نطلب منكم يا من تؤكدون بشدة القرابة القوية بين دينينا، أن تؤمنوا أن لدى الغرب شيئا أكثر وأفضل، أفضل من ثقافتكم: إنه كلمة الحياة، رؤية مملكة الرب، وأمل لا نهائي، أمل لا ينتهي، نعبر عنه بكلمة واحدة وباسم واحد: إنه يسوع المسيح».

إن مثل هذا الكلام ليس «حوارا» بأي معنى من المعاني ذات الأهمية، فمثل هذه العبارات لا تعني شيئا، أو لا قيمة لها حتى بالنسبة للمسلم الذي وصل إلى درجة عالية من التعليم، إنه ببساطة، سيجيب عن مثل هذه النداءات غير المجدية، بأن لديه بالفعل «كلمة الحياة» ممثلة في القرآن، وأنه يعتقد أن إرادة الله ومشيئته هي التي تحقق العدالة على ظهر الأرض.

وإذا وضعنا في اعتبارنا أن «الحوار» المقصود هنا يكون بين أشخاص ينتمون إلى ثقافات مختلفة، اتضح لنا ضرورة أن يكون المشاركون في هذه الحوارات أناسا على درجة عالية من التفتح وتقبل ما يقوله الآخرون، فلا يمكن أن يكون هناك حوار من أي نوع ما لم يتكلم أحد الأطراف بينما يصغي الطرف الآخر لما يقال محاولا أن يفهم، وهذا ليس بالأمر اليسير بين ثقافات غريبة بعضها عن البعض

الآخر. لأسباب منها اختلاف المفاهيم والقيم والأفكار. فإذا راح طرفان أحدهما مسيحي والآخر مسلم، يبحث كل منهما للآخر عن حجج وبراهين لدعم الخلاف بينهما. فهما سيجدان بسهولة كثيرا من العناصر لدعم الخلاف. لكن هذا لن يؤدي إلى قيام حوار حقيقي. فمن شروط الحوار الرغبة في التعلم، وإذا كان الأمر متعلقا بثقافات مختلفة، فهذا يعني صبرا عظيما ومحاولة التآلف والتعارف بكل جوانب العقلية الأخرى، أو العقلية الغريبة. والتدرب على فهم عقليات الآخرين يجعل المرء أكثر تفتحا. فإذا تقبل القيم الموجودة في الدين الآخر. فإنه سيبدأ في البحث عن سبيل لإدماجها في دينه. فالمؤلف المسيحي السويسري - الذي اقتبسنا من كتابه تلك العبارات - كان يشجع المسلمين - بلطف ودماثة - على أن يضيفوا إلى دينهم شيئا دون أن يتخلوا عن الجزء الأساسي من تراثهم. ولكنه فشل في أن يرى - كمسيحي - أنه لابد أن يسأل نفسه فيما إذا كان لدى الإسلام شيء يقدمه ليضاف إلى المسيحية؟

ربما كانت ثقة المسلم العادي العميقة في الله، هي الفكرة التي يجب أن تأخذها المسيحية من الإسلام.

ويبدو ضروريا لحوار حقيقي أن يفرق كل مشارك في الحوار بين رسالة دينه الإيجابية، وبين حججه الدفاعية، فتكرار الحجج الدفاعية يعني الرغبة في منع معتنقي هذا الدين من الخروج عنه، كما يحفز معتنقي الديانات الأخرى على صياغة حجج مضادة، والدفاعات والحجج المختلفة قد تنشأ بين أصحاب دين واحد على تفسير نص، مع أن هذا النص يلقى اعترافا من الطرفين المتجادلين.

وفي الحوار مع الإسلام، يجب أن يتخلى المسيحيون عن فكرة أن محمدا لم يتلق وحيا، والأفكار الشبيهة ...»[١٠].

(١٠) مونتجومري وات: الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر (ص٢٤. ٢٢٧ - ٢٣٠).

- ٢ -

عوامل امتياز الإسلام

شهادة المستشرقة الألمانية
سيجريد هونكه (١٩١٣-١٩٩٩م)

تأتي هذه الشهادة ضمن الشهادات العلمية الغربية، المنصفة للإسلام، فهي للعالمة الجليلة، والمستشرقة الألمانية الشهيرة «سيجريد هونكه»، التي ولدت (في ٢٦ من إبريل سنة ١٩١٣م)، بمدينة «كيل» الألمانية. والتي تخرجت في جامعات «كيل»، و«فرايبورج»، و«برلين».. والتي تخصصت في الدراسات المقارنة بين الحضارات والديانات.

ولقد حصلت «سيجريد هونكه» على الدكتوراه من جامعة «همبولدت» في برلين سنة (١٩٣٩م)، بأطروحة عنوانها «حول تأثير الأنماط الغربية في ضوء فن الغزل العربي والألماني».

وقامت بتدريس الفلسفة.. وعلم النفس الجمعي للشعوب.. وعلم الأديان المقارن.. واللغة الألمانية وآدابها.. وتاريخ القرون الوسطى.. في كثير من الجامعات.

كما قدمت للمكتبة أعمالها الفكرية المتميزة، التي تخصصت في دراسة الإسلام وحضارته، مقارنة بالحضارة الغربية والنصرانية.. ومن هذه الأعمال الفكرية:

١ - «شمس الله تسطع على الغرب» سنة (١٩٦٠م)، ولقد بيعت منه أكثر من مليون نسخة. وصدرت ترجمته العربية بعنوان: «فضل العرب على أوروبا» سنة (١٩٦٤م).

٢ - و«العقيدة والمعرفة» الذي صدرت ترجمته العربية سنة (١٩٨٧م).

٣- و«الله ليس كذلك» الذي كتبته أوائل تسعينيات القرن العشرين، وصدرت ترجمته العربية سنة (١٩٩٥م).

٤ - و«قوافل عربية في رحاب القيصر» سنة (١٩٧٦م)، عن الصلات التاريخية بين العرب والألمان.

ولقد أسست «سيجريد هونكه» لمشروعها الفكري - المقارنات الحضارية والدينية - سنة (١٩٧٣م) رابطة حملت اسمها.. وتولت الرئاسة الفخرية لها.

وهي عضو شرف بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية - بمصر - وحاصلة على كثير من الجوائز والأوسمة العالمية.. ومنها: جائزة وسام الفيلسوف «كانت» سنة (١٩٨١م)، وجائزة الشاعر «شيللر» للألمان سنة (١٩٨٥م)، ووسام الاستحقاق والتقدير المصري من الطبقة الرفيعة في العلوم والفنون سنة (١٩٨٨م).

***

وفي هذه الشهادة تؤكد الدكتورة «سيجريد هونكه» على:

١- سماحة الإسلام.. في مقابل التعصب الأعمى للكهنوت النصراني الغربي..

٢- والفهم الغربي الخاطئ للجهاد في الإسلام.

٣- والنموذج الإسلامي المتميز لتحرير المرأة وحريتها.

٤- وتميز العقل اليوناني بالطبيعة التأملية التجريدية.. المحتقرة للعمل اليدوي، وللتجربة في الطبيعة، الأمر الذي جعل هذا العقل لا يتخذ من الطبيعة مصدرا للمعرفة، ولا من التجريب أداة لاختبار صدق المعرفة.. فوقعت المعرفة لديه عند العقل، لا الواقع، والفلسفة، لا العلم..

٥- وتميز العقل المسيحي الأوروبي بالموقف المعادي من معرفة الطبيعة، التي عدها خطيئة.. وشهوة مماثلة لشهوة الجسد الكامنة في الحواس.. كما عد العقلانية إثما.. وحصر المعرفة في اللاهوت والإنجيل وحده.. فالمعرفة.. عند هذا العقل النصراني الأوروبي ليست في هذا العالم.. والبحث عنها في غير الوحي خطيئة وإلحاد.

٦- ورفض المسيحية الأوروبية للفكر اليوناني وتراثه على حين أحياه الإسلام..

٧- وتميز العقل الإسلامي والعربي بـ:

التسامح والتفاعل مع المواريث الحضارية.. وإنقاذ هذه المواريث من الضياع.

وأثر التسامح الإسلامي في إبداع الدراسات المقارنة.

وتميز الحضارة الإسلامية بالإبداع في العلوم المدنية والحضارية منذ فجر ظهور الإسلام.

والإبداع الإسلامي للمنهج التجريبي. كأثر من آثار الموقف الإسلامي المتميز من الطبيعة.. الأمر الذي ميز العلم الإسلامي. وحقق الإضافات التي تجاوزت العلم اليوناني.. وصححته بالتجربة.. التي نهضت على أساسها أوروبا نهضتها الحديثة.

- وأثر التجريب في العلم الإسلامي على نشأة المنهج الاستقرائي. المنطلق من الجزئيات إلى الكليات والقانون.

وأستاذية العلماء المسلمين لأوروبا الحديثة.

٨ - والدور العلمي التجريبي الإسلامي في انتصار العقل العلمي الأوربي الحديث على النظرة اليونانية والنظرة المسيحية للطبيعة والتجريب.

- وتبني العلم الأوروبي للنزعة الإيمانية في فلسفة العلم الطبيعي. على النحو الذي سنته فلسفة العلم في حضارة الإسلام.

وشذوذ العلم الوضعي الغربي - المادي - عن إسلامية العلوم.

٩ - كما تشهد «سيجريد هونكه» لضرورة تميز النهضة العربية المنشودة بمكونات الهوية الحضارية الإسلامية المتميزة.. دونما تغريب واغتراب.. ودونما عزلة وانغلاق..

صورا خيالية شيطانية غاية في الوحشية، دون أن يكون له أدنى معرفة، أو حتى إلهام طفيف ضحل بها».

«إن الكتب، آنذاك، كانت نادرة الوجود شمالي جبال البرانس، حتى إنها كانت في الأديرة تثبت بالسلاسل، بينما ذهب رجال الدين النصارى آنذاك إلى أن طلب العلم والمعرفة - بعدما أنزل الإنجيل - تجديف وكفر بالله»، مثلما زعم من قبل «ترتوليان» (١٦٠-٢٢٠م)، و«أغسطين» (٣٥٤-٤٣٠م) اللذان لعنا حب الاستطلاع، أو «الفضول المريض»، واصفين إياه بأنه «واحدة من أخطر صور الوسوسة والضلال»، مما يسلم الفضولي إلى الملاحقة والتعذيب...».

* «وبينما عاشت النصرانية في ظل الحكم الإسلامي قرونا طوالا - في الأندلس.. وفي صقلية.. وفي البلقان - فإن «انتصار النصرانية على الإسلام في الأندلس سنة (١٤٩٢م) لم يعن سوى طرد المسلمين واليهود، واضطهادهم وإكراههم على التنصر، واستئناف نشاط محاكم التفتيش التي قامت بتعقب كل من يتخذ سوى الكاثوليكية دينا، والحرق العلني في احتفالات رسمية تحفها الطقوس والشعائر الكنسية لكل من اعتنق الإسلام أو اليهودية..

ولم تلغ محاكم التفتيش إلا في سنة (١٨٣٤م)..»

«لقد كفلت معاهدها السلطان الكامل (٦١٥-٦٣٥هـ /

١٢١٨ - ١٢٣٨م) - ابن أخي صلاح الدين الأيوبي (٥٦٤ - ٥٨٩هـ / ١١٦٩ - ١١٩٣م) مع القيصر فريدريك الثاني (١١٩٤ - ١٢٥٠م) المساواة التامة بين المسلمين وغير المسلمين، والاحترام المتبادل، والحرية الكاملة لليهود والنصارى والمسلمين في إقامة شعائرهم الدينية في أنحاء الأرض المقدسة كافة كما شاءوا...».

* «ولقد كتب بطريرك القدس «تيودوسيوس» في أوائل القرن الحادي عشر إلى الأسقف «أجناتيوس» - في بيزنطة - يقول: «إن العرب هنا هم رؤساؤنا الحكام، وهم لا يحاربون النصرانية، بل على العكس من ذلك يحمونها، ويذودون عنها، ويوقرون قساوستنا ورهباننا، ويجلون قديسينا...».

* «بينما أصدر كبير وعاظ الحروب الصليبية «برنارد كلير فوكس» أمره إلى المحاربين الصليبيين: «إما التنصير وإما الإبادة»!

«ووصف المؤرخ الأوروبي «ميشائيل درسيرر» مذبحة المسلمين في القدس سنة (١٠٩٩م) على يد الصليبيين، وكيف كان البطريرك نفسه يعدو في زقاق بيت القدس، وسيفه يقطر دما حاصدا به كل من وجده في طريقه، ولم يتوقف حتى بلغ كنيسة القيامة وقبر المسيح، فأخذ في غسل يديه تخلصا من الدماء اللاصقة بهما، مرددا كلمات المزمور التالي: «يفرح الأبرار حين يرون عقاب الأشرار، ويغسلون أقدامهم بدمهم،

فيقول الناس: حقًا إن للصديق مكافأة. وإن في الأرض إلها يقضي - (المزمور ٥٨: ١٠-١١) ثم أخذ في أداء القداس قائلا: إنه لم يتقدم في حياته للرب بأي قربان أعظم من ذلك ليرضي الرب!

* وعندما احتل الصليبيون «دمياط» - الميناء المصري - بعد الاستيلاء على حصنها - (٦١٥هـ ١٢١٨م) أبادوا جميع من بها. بناء على أوامر البابا. ومبعوثيه الكرادلة. ورجال الكنيسة..

فلما انتصر السلطان الكامل على هذه الحملة سنة (١٢٢١م) أكرم أسراهم.. ولم يقتص منهم: العين بالعين والسن بالسن. وإنما أطعمهم في مسغبة أربعة أيام طوالا. مرسلا إلى جيشهم المتضور جوعا كل يوم ثلاثين ألف رغيف. ومواد غذائية أخرى.. وشهد بهذا الإكرام أحد هؤلاء الأسرى: عالم الفلسفة اللاهوتية «أوليفروس» - من كولونيا نهر الراين بألمانيا - فكتب يقول للملك الكامل:

«منذ تقادم العهود لم يسمع المرء بمثل هذا الترفق والجود. وبخاصة إزاء أسرى العدو اللدود. ولما شاء الله أن نكون أسراك. لم نعرفك مستبدا طاغية. ولا سيدا داهية. وإنما عرفناك أبا رحيما. شملنا بالإحسان والطيبات. وعونا منقذا في كل النوائب والملمات. ومن ذا الذي يمكن أن يشك لحظة في أن مثل هذا الجود والتسامح والرحمة من عند الله.

إن الرجال الذين قتلنا آباءهم وأبناءهم وبناتهم وإخوانهم وأخواتهم. وأذقناهم مر العذاب. لما غدونا أسراهم. وكدنا نموت جوعا راحوا يؤثروننا على أنفسهم على ما بها من خصاصة. وأسدوا إلينا كل ما استطاعوا من إحسان. بينما كنا تحت رحمتهم لا حول لنا ولا سلطان...».

* «وحين تمكن صلاح الدين الأيوبي من استرداد بيت المقدس (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) التي كان الصليبيون قد انتزعوها من قبل (٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م) بعد أن سفكوا دماء أهلها في مذبحة لا تدانيها أي مذبحة وحشية وقسوة. فإنه لم يسفك دم سكانها من النصارى انتقاما لسفك دم المسلمين. بل إنه شملهم بمروءته. وأسبغ عليهم من جوده ورحمته. ضاربا المثل في التخلق بروح الفروسية العالية.

وعلى العكس من المسلمين. لم تعرف الفروسية النصرانية أي التزام خلقي تجاه كلمة الشرف أو الأسرى.. فالملك ريتشارد قلب الأسد (١١٥٧-١١٩٩م) الذي أقسم بشرفه لثلاثة آلاف أسير عربي أن حياتهم آمنة. إذا هو فجأة منقلب المزاج. فيأمر بذبحهم جميعا...»[11]

***

(١١) سيجريد هونكه. الله ليس كذلك (ص٥٣، ٥٥، ٤٥، ٣٠، ٢٠، ٢٥، ٢٢، ٣٣، ٣٤)، ترجمة د. غريب محمد غريب. طبعة القاهرة. سنة (١٩٩٥م).

(٢)
الجهاد الإسلامي

«إن الجهاد الإسلامي، ليس هو ما نطلق عليه - ببساطة - مصطلح الحرب المقدسة، فالجهاد - كما يذكر الألماني المسلم أحمد شميدة: «هو كل سعي مبذول، وكل اجتهاد مقبول، وكل تثبيت للإسلام في أنفسنا، حتى نتمكن في هذه الحياة الدنيا من خوض الصراع اليومي المتجدد أبدا ضد القوى الأمارة بالسوء في أنفسنا وفي البيئة المحيطة بنا عالميًا. فالجهاد هو المنبع الذي لا ينقص، والذي ينهل منه المسلم مستمدًا الطاقة التي تؤهله لتحمل مسئوليته، خاضعا لإرادة الله عن وعي ويقين. إن الجهاد بمثابة التأهب اليقظ الدائم للأمة الإسلامية للدفاع بردع القوى المعادية كافة التي تقف في وجه تحقيق ما شرعه الإسلام من نظام اجتماعي إسلامي في ديار الإسلام»...

واليوم، وبعد انصرام ألف ومائتي عام، لا يزال الغرب النصراني متمسكا بالحكايات المختلفة الخرافية التي كانت الجدات يروينها؛ حيث زعم مختلقوها أن الجيوش العربية بعد موت محمد ﷺ نشرت الإسلام «بالنار وبحد السيف البتار» من الهند إلى المحيط الأطلنطي، ويلح الغرب على ذلك بالسبل كافة: بالكلمة المنطوقة أو المكتوبة، وفي الجرائد والمجلات، والكتب والمنشورات، وفي الرأي العام، بل في أحدث حملات الدعاية ضد الإسلام.

... ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] . تلك هي كلمة القرآن الملزمة، كما ترد في الآية السادسة والخمسين بعد المائتين من سورة البقرة. فلم يكن الهدف أو المغزى للفتوحات العربية نشر الدين الإسلامي، وإنما بسط سلطان الله في أرضه. فكان للنصراني أن يظل نصرانيا، ولليهودي أن يظل يهوديا، كما كانوا من قبل. ولم يمنعهم أحد أن يؤدوا شعائر دينهم، وما كان الإسلام يبيح لأحد أن يفعل ذلك. ولم يكن أحد لينزل أذى أو ضررا بأحبارهم أو قساوستهم ومراجعهم، وبيعهم وصوامعهم وكنائسهم.

لقد كان أتباع الملل الأخرى - وبطبيعة الحال من النصارى واليهود - هم الذين سعوا سعيا لاعتناق الإسلام والأخذ بحضارة الفاتحين. ولقد ألحوا في ذلك شغفا وافتتانا، أكثر مما أحب العرب أنفسهم. فاتخذوا أسماء عربية وثيابا عربية، وعادات وتقاليد عربية، واللسان العربي، وتزوجوا على الطريقة العربية، ونطقوا بالشهادتين. لقد كانت الروعة الكامنة في أسلوب الحياة العربية، والتمدن العربي، والسمو والمروءة والجمال - وباختصار: السحر الأصيل الذي تتميز به الحضارة العربية، بغض النظر عن الكرم العربي والتسامح وسماحة النفس - كانت هذه كلها قوة جذب لا تقاوم.

لقد ساء ذلك الآباء الروحيين النصارى، فقد كانوا شهود عيان في الأندلس لقوة جذب المد الروحي والفكري العربي، الذي سقط ضحيته رعاياهم النصارى طوعا وعن طيب خاطر.

يشهد بذلك أسقف قرطبة (القارو) الذي راح يجأر بشكواه بكلمات مؤثرة تصور بلواه :

إن كثيرين من أبناء ديني يقرءون أساطير العرب، ويتدارسون كتابات المسلمين من الفلاسفة وعلماء الدين، ليس ليدحضوها، وإنما ليتقنوا اللغة العربية ويحسنوا التوسل بها حسب التعبير القويم والذوق السليم. وأين تقع اليوم على النصراني - من غير المتخصصين - الذي يقرأ التفاسير اللاتينية للإنجيل ؟ بل من ذا الذي يدرس منهم الأناجيل الأربعة، والأنبياء، ورسائل الرسل ؟..

واحسرتاه ! إن الشبان النصارى جميعهم اليوم، الذين لمعوا وبزوا أقرانهم بمواهبهم لا يعرفون سوى لغة العرب والأدب العربي ! إنهم يتعمقون في دراسة المراجع العربية باذلين في قراءتها ودراستها كل ما وسعهم من طاقة، منفقين المبالغ الطائلة في اقتناء الكتب العربية، وإنشاء مكتبات ضخمة خاصة، ويذيعون جهرا في كل مكان أن ذلك الأدب العربي جدير بالإكبار والإعجاب ! ولئن حاول أحد إقناعهم بالاحتجاج بكتب النصارى، فإنهم يردون باستخفاف، ذاكرين أن تلك الكتب لا تحظى باهتمامهم !..

وامصيبتاه ! إن النصارى قد نسوا حتى لغتهم الأم، فلا تكاد تجد اليوم واحدا في الألف يستطيع أن يدبج رسالة بسيطة باللاتينية السليمة، بينما العكس من ذلك لا تستطيع إحصاء

عدد من يحسن منهم العربية تعبيرا وكتابة وتحبيرا. بل إن منهم من يقرضون الشعر بالعربية، حتى لقد حذقوه وبزوا في ذلك العرب أنفسهم!..

إن سحر أسلوب المعيشة العربي ذاك قد اجتذب إلى فلكه الصليبيين إبان وقت قصير، كما تؤكد شهادة الفارس الفرنسي «فولتير الشارتي»: و«ها نحن أولاء الذين كنا أبناء الغرب قد صرنا شرقيين»!

ثم راح يصور أحاسيسه وقد تملكه الإعجاب بالسحر العريب لذلك العالم العجيب بما يعبق به من عطر وألوان، تبعث النشوة في الوجدان، ثم يتساءل بعد ذلك مستنكرا: «أفبعد كل هذا ننقلب إلى الغرب الكئيب؟! بعدما أفاء الله علينا، وبدل الغرب إلى الشرق؟!»[١٢].

بهذا انتشر الإسلام.. وليس بالسيف.. أو الإكراه..

***

(١٢) سيجريد هونكه: الله ليس كذلك (ص ٤٠، ٤٣).

(٣)
التحرير الإسلامي للمرأة

* «إن الرجل والمرأة في الإسلام يتمتعان بالحقوق نفسها، من حيث النوعية، وإن لم تكن تلك الحقوق هي ذاتها في كل المجالات..

... وفي الحياة الزوجية، التي يهتم بها القرآن اهتماما رئيسيا، تنظر المرأة إلى زوجها نظرة العارفة بقوامته عليها، وذلك أن كبرياءها يأبى عليها الامتثال والولاء والطاعة إلا لمن ترفع إليه بصرها إعجابا وتقديرا.. فالعلاقة بينهما تخضع للامتثال القائم على الثقة والخضوع والولاء، ولا تعني تلك «الطاعة» عبئا ينوء المرء تحته مُعانيا، بل إن المرء يتمتع بخضوعه هنا، دون الحط من قدره، بل إنه ليبلغ خضوعه أسمى الدرجات، سواء في عبوديته لله، أو في حبه من يحب.. وهذا هو الذي عبر عنه ابن حزم الأندلسي (٣٨٤-٤٥٦هـ/ ٩٩٤-١٠٦٤م) في كتابه «طوق الحمامة» حيث يقول: «ومن عجب ما يقع في الحب من طاعة المحب لمحبوبه.. ولقد وطئت بساط الخلفاء، وشاهدت محاضر الملوك، فما رأيت هيبة تعدل هيبة المحب لمحبوبه.. وهذا مكان تتقاصر دونه الصفات، وتتلكن بتحديده الألسنة..»».

* «لذلك، فعلى المرأة العربية أن تتحرر من النفوذ الأجنبي.. وإذا أرادت طي صفحة الماضي بخلعها للحجاب، فلا

ينبغي عليها أن تتخذ المرأة الأوروبية أو الأمريكية أو الروسية قدوة تحتذيها، أو أن تهتدي بفكر عقائدي مهما كان مصدره؛ لأن في ذلك تمكينا جديدا للفكر الدخيل المؤدي إلى فقدها لمقومات شخصيتها، وإنما عليها أن تتمسك بهدي الإسلام الأصيل، وأن تسلك سبيل السابقات من السلف الصالح، اللاتي عشنه منطلقات من قانون الفطرة التي فطرن عليها، وأن تلتمس العربية لديهن المعايير والقيم التي عشن وفقا لها، وأن تكيف تلك المعايير والقيم مع متطلبات العصر الضرورية، وأن تضع نصب عينيها رسالتها الخطيرة المتمثلة في كونها أم جيل الغد العربي، الذي يجب أن ينشأ عصاميًا يعتمد على نفسه».

* «لقد طبع التحدي الذي واجه الفلسطينيات موقفهن بطابع متميز.. فبينما يعاني آلاف الرجال ذل السجون، كان عليهن أن يقمن وحدهن بأعباء الأسرة وتربية الأطفال وتنشئتهم، أو حماية أنفسهن وأسرهن من الفتك الذريع، واغتصاب الزبانية بوحشية السادر، وهكذا لم يكن دور الفلسطينيات جديدا فحسب، وإنما نشأن وشببن ليتولين أدوارا قيادية في المجتمع، ولقد شاركن مشاركة إيجابية في حركة الانتفاضة - أو قل: جهاد التحرير - على كل المستويات الممكنة.

إن نساء فلسطين العربيات يكتبن بأنفسهن التاريخ اليوم، وهن اللاتي يحملن مسئولية تقرير المصير في التحول الاجتماعي، فهن يرأسن المؤتمرات الشعبية، وينظمن اللجان

والهيئات التعاونية والإنتاجية، ويوفرن أماكن العمل والوظائف المختلفة ويشغلنها. وهن فدائيات مجاهدات شهيدات ينتهك الغاصب كرامتهن، ويزج بهن في السجون، ويمعن في تعذيبهن، ولا ريب في أن الفلسطينيات سوف يسهمن في المستقبل إسهاما خطيرا في تقرير مصيرهن بأنفسهن، ومصير فلسطين. وسوف تتحدد حرية جميع الأرض المحتلة في ضوء تحقق المساواة وتحرير المرأة»[١٣].

***

(١٣) سيجريد هونكه: الله ليس كذلك (ص٦٦، ٦٣، ٧١، ٧٢)

«ولقد اعترف «هوميروس» (القرن التاسع ق.م) - بعد صراع طويل مع نفسه، وبندم شديد - أنه طرح جانبا محاولة الغوص في الحكمة اللاروحية لكتابات الوثنية؛ حيث قال: «أيها السيد، لو عدت إلى قراءة تلك الكتب الأرضية مرة أخرى، فإنما أنكر بذلك وجودك»!

«وبقدر ما حركت الطبيعة حكماء الإغريق، بدءا بـ «تاليس» (٦٢٤-٥٥٠ق.م) وانتهاء «بهيراقليط» (٤٨٣-٥٤٤م). كان تفاعل «أفلاطون» (٤٢٧-٣٤٧ق.م) معها ضعيفا، وجاء في سن متأخرة، والفلاسفة الثلاثة متفقون على ذلك تقريبا. إن الحواس لا تقدر على تمييز (معرفة) الوجود الصادق؛ لأنها - الحواس - تخدع الإنسان، إنها لا تدرك غير الظاهر، الشيء المتقلب في تياره على الدوام، مما كان، عبر ما هو كائن، فيما يئول إليه، إنها مصدر المعرفة الضبابية غير الصافية، ونفس النقص الذي يلازم المعرفة الحسية البشرية، يلتصق بعالم الظاهر المضطرب، المبتعد، المتلون، المتداخل، الهائج النامي، المتحرك، المنتظم والمضطرب، دائم التغير، قطيعة العفونة في «المادة»!..

ومن خلال اكتشاف عالم المادة والطبيعة، لا يتسنى الحصول على المعرفة، إن التعرف الفعلي على أي شيء لا يتم إلا حين يغادر الإنسان الجسد؛ لأن الاتحاد بالجسد لا يسمح للروح بالعثور على المعرفة...»

«وفي الأفلاطونية الجديدة كان محب الجمال، صاحب الشعور المرهف، يخجل إن هو ملك جسدا.. لذا، فإن الروح ذاتها تصبح شريرة حالما تلامس المادة، تلوث بها وتلطخ، وتصاب بالشهوة...

«ولقد ابتعد أرسطوطاليس (٣٨٤ - ٣٢٢ق.م.) عن الحقيقة لدى تعرضه لطبيعة الطيور؛ لأنه لم يمارس صيد الطيور قط».

«لقد رسخ أرسطوطاليس الفلسفة، وأيقظ متعة العقلانية، كما أيقظ ولعا ذهنيا فاترا في فن البرهنة والمحاجة والجدلية المصاغ منطقيا، كالتحليل والتمييز، والمفاضلة، والاستنتاج، والتصنيف، والتي تحولت، بالنظر لبقائها بدون مضمون، إلى صيغ هشة...».

«لقد وضع أرسطوطاليس نفسه - كمعلم للمنطق والجدل - وهو الوحيد الذي حكم العقل وحده، فاتخذ القوانين المنطقية المجردة وسيلة لتأمل الله والعالم».

«لقد أعار أرسطوطاليس اهتماما لكل التفاصيل في حقل المعرفة الحيوانية، لكن مقومات العلم اليوناني لم تتبدل بذلك؛ إن الفلك والفيزياء، ونظرية الموسيقى، والكيمياء، والطب، وعلم الحيوان، والنبات اليونانية، تبقى على الراجح فلسفية، وكذلك يونانية المنطق؛ لقد كانت الحقيقة لدى الحس اليوناني المتأمل، ليس مما تعده الحاسة واقعا، بل واقعا عقليا فقط...»(١٤).

(١٤) سيجريد هونكه، العقيدة والمعرفة (ص٣٣، ٥٨، ٥٩، ١٢٤، ٢٢، ٣٢، ٣٤، ١٦٨، ٣٦، ٣٧، ١١١)، ترجمة عمر لطفي العالم، طبعة دمشق، سنة (١٩٨٧م).

(٥)

العقل المسيحي الأوربي

* «يقول «بولس»: لأن حكمة هذا العالم هي جهالة عند الله.. والرب يعلم أفكار الحكماء أنها باطلة»!

«لقد حارب آباء الكنيسة العلم والبحث بحجة أن ذلك «يجعلهم يتردون في الخطيئة».. مرددين بذلك ما أكده لهم «ترتوليان»: حيث زعم أنه «بعد مجيء عيسى» لا يحق لهم «أن يكونوا محبي استطلاع، أو أن يبحثوا في العلوم، ففي الإنجيل الكفاية».

ولذلك، فلا الروم البيزنطيون، ولا فرق النصارى - سواء الأقباط، أو النساطرة، أو القائلون بالطبيعة الواحدة للمسيح - هم الذين سعوا إلى إنقاذ حضارة إغريق هلينية، التي كان بعضها قد أبيد إبادة تامة على أيدي متحمسي النصارى النشطين في مهاجمة العلوم..»

* وفي النصرانية: «الإيمان هو ألا ترتاب، وألا تسأل»..

«ولقد وصف الأب الروحي «تيرتوليان» فضول العقل بأنه إثم، فضول فاحش.. أو ليست الشهوة، وهي الأكل من شجرة المعرفة، بقصد الارتقاء إلى مستوى الله، هي الخطيئة التي هبطت بالإنسان إلى الأرض؟ فمن الخطيئة الأولى في الجنة، حظر الإنسان على نفسه بعدها أن يدعي معرفة ليست من حقه: ذلك الذنب!.. وكان حريًا به أن يسعى إلى النجاة بروحه، بدلا من أن ينحرف بالرغبة الجامحة، الخاطئة في معرفة المزيد!..

أولم يصنف الله المعرفة في الدنيا بأنها غرور؟ ونهى بولس الرسول عن أي نوع من أنواع البحث عن الحقيقة في هذا العالم؟ لقد جاء: «سأبدد حكمة الحكماء، وأنبذ معرفة العارفين»..

فإلى جانب الطريق الوحيدة التي تزكي الروح، كان ثمة طريق أخرى خاطئة ملحدة، أي: البحث عن الحقيقة في مكان آخر غير ما أوحي به من السماء».

* «لقد تحولت الإمبراطورية الرومانية إلى إمبراطورية مسيحية (وقد عُدَّ ذلك من أخطر صيغ المحاولة) لاستقاء المعرفة. هذا ما قدمه «أوغسطين» مرة وإلى الأبد: «... لأنه فضلا عن شهوة الجسد التي تكمن في متعة حواسنا واستمتاعنا - وعبيدها مآلهم إلى الفناء حين ينأون عنك - يحيا في النفس من خلال نفس الحواس ميل وفضول.. يُسيَّج بقناع العلم والحكمة...».

ومن هذا الفضول القاتل، الذي ينشأ من هوس نحو حب المعرفة والابتكار، رغب الناس المتطلعون إلى اكتشاف الطبيعة. ولئن كانت هذه المعرفة ليست ذات قيمة لهم في الاكتشاف لمجرد الرغبة في المعرفة. وانصرفوا إلى الاهتمام بمسار الكواكب بدلا من العناية بشفاء روحهم المذنبة التي تحدق بها الأخطار، ولقد أطلقوا على ذلك أيضا: سوء استعمال قوى العقل. إن هو غني باستكشاف الطبيعة، بدلا من التوجه إلى تعاليم الدين الموحى به...».

«وكما أراد «أوغسطين»: نشأ بدافع الفضول المريض، مجرد النزعة إلى التجربة والابتكار، وبها ظهرت إحدى أخطر صيغ التجربة».

«وكما قال بولس الرسول: «يوجد مكتوب: أريد أن أهدم حكمة الحكماء وأحطم عقل العقلاء.. وإن الغباء الموجود في الوجود حكمة الله. وهذا يسيء إلى الحكماء»!.

لقد وضعت المسيحية قدمها، في الإسكندرية وبيزنطة، في أثينا وروما، وفي فرنسا وبريطانيا، أدت إلى تقلص مروع للثقافة».

«لقد فصلت المسيحية فصلا مطلقا بين الحياة الأخروية العلوية، والدنيوية الأرضية المكتظة بالنقائص، وكل ما هنالك قابل للقسمة بعمق، وتلقى بينهما العداوة بلا أمل للتوفيق: الله والعالم، الروحي والدنيوي، والروح والجسد، الرجل والأنثى؛ لقد تعلموا ذلك من أوغسطين أساسا».

* «ولم يكن لدى المسيحية - كهدي سماوي - أسئلة توجهها إلى العالم، ولقد سمحت للإنسان كذلك بتوجيه أسئلة إليها:

- أولم تكن الشهوة إلى المعرفة هي السبب في إنزال الخطيئة إلى العالم؟

- أولم يصف الله حكمة العالم بأنها غباء؟ «ورفض بولس كل أنواع البحث عن الحقيقة».

وإلى جانب الطريق الروحية، الوحيدة الموصلة للروح إلى الله، عد كل طريق للبحث عنها في أي مكان آخر عدا الوحي

حاطئا مارقا.. أن تكون محبا للاطلاع، وأن تبحث بعدما تبشر بالإنجيل أمران جعلهما «تير توليان». و«أوغسطين»، ورئيس أساقفة «تمبير» إثما عظيما وخطيرا».

«ولقد شهر الراهب «أبسالوم» - من دير سانت فيكتور - بالفضول الكافر المتزايد نحو معرفة شكل الأرض، وطبيعة عناصرها، وموقع النجوم، وطبيعة الحيوانات، وقوة الرياح، وحياة النباتات والديدان».

«إن الديانة المسيحية السماوية، لم تكن خالية الوفاض فقط من أسئلة توجهها إلى العالم؛ لأن مشيئة الله ليست موضع سؤال، بل لأنها فضلا عن ذلك غير قابلة للحساب. وفي رأيها: لم يكن ثمة باعث، بل ولاحق أيضا في تقصي الأسباب».

واستنادا إلى خلفية الفكرة المسيحية عن العالم (صورته)، كما رسمها اللاهوتيون طبقا للإنجيل، ومؤازرة من خادميهم سواء بأوغسطين، أو أفلاطون، أو الأفلاطونية الجديدة، أو الفلسفة الأرسطوطاليسية - فإنه لم يكن بالإمكان قط نشوء علم طبيعي. لماذا؟

إن الثنائية المسيحية عملت على رفد الطبيعة بنظام خارجي، عن طريق إله أخروي، دخل في هيئة غيبية سواء أكان بمعجزة، بالرحمة أو العقاب، بتقمص صورة إنسان، في عالم أبدي تسيطر عليه العفاريت، وبعد أن انسحب، ما انفك يتدخل يوميا من خلال سر الأقداس، ومن خلال تقبل الصلوات والجزاء والأعمال الخيرة..

ولـم يكن للعلم أن يتقدم في ظل الثنائية الأفلاطونية والأفلاطونية الحديدة. طالما أن العالم المنظور للطبيعة السماوية والأرضية هو لا شيء. مجرد ظل واهن لعالم الفكرة، وأن كل مجهود يبذل لاكتشافها عبث. لا يستسيغه العقل، كما قال أفلاطون: «يجب، بدلا من ذلك أن ننكب على المهام المجردة، سواء في الفلك أو الرياضيات والأجرام السماوية، إذا ما طمحنا بصدق إلى فهم الفلك».

* ولقد جاء في مرسوم رئيس أساقفة باريس «تيمير» بالحاد «سيجر - باربانت»: «إن ما هو صحيح في نظر العقل، قد يكون خطأ في نظر العقيدة».

* «وإن انصراف أوروبا ذات النشأة المسيحية إلى الله والنفس، في ذات الوقت الذي تم فيه إعطاء الطبيعة الصبغة الشيطانية، وتلحيد المحيط، أدى إلى تخلف الثقافة، وإلى الركود العقلي إلى درجة العقم، وبدافع الازدراء لأعمالهم اليومية غير المفيدة، انتقد «أيوسيبوس - Esusebius» الباحثين في مصر قائلا:

«قليلا ما نفكر في أشيائهم، وتيمم روحنا شطر أشياء أفضل».

«حدث هذا في الوقت الذي بلغ فيه العالم الإسلامي مستوى عريضا على طريق تطوير العلوم الطبيعية.. انطلاقا من الحافز الديني على النظر في ملكوت السموات والأرض.. لقد خلق العرب الفلك خلقا جديدا.. ولقد ظهر بينهم فلكيان عظيمان يسمى كل منهما «عمر»، وقد جلسا يوما من الأيام عند عمود

مسجد من المساجد، وأمامهما كتاب الماجسطي، فعبر عليهما جماعة من العلماء فوقفوا، وسألوهما: ماذا يدرسان؟ فأجابا: «نحن نقرأ - أجاب أحد العمرين - تفسير قوله - تعالى:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ [الغاشية: ١٧، ١٨].

* «لقد حرمت الكنيسة طرق المداواة الجديدة باعتبارها شعوذة وخرافات باطلة، وظلت ستمائة سنة بحالها مشلولة، دون المضي قدما في تطوير الطب وتوظيفه في خدمة الإنسان.. وكان الصليبيون في حملة «دمياط» الصليبية (١٢١٨-١٢٢١م) يؤثرون علاج جراحهم لدى أطباء خصومهم العرب».

* «ولقد عبر القرافي» (٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) - في سياق الأسئلة الجريئة - عن ذلك، فقال:

«يحرص اليهود والنصارى على القول بأن النصب المقدسة تذرف الدمع، ومن أثدائها ينضح اللبن!

على هذا النحو احتقر العربي المتنور أمثال هذه الخزعبلات. فيما قدر عاليًا أصحاب الرأي المشابه في المسائل التي تتعلق بالكائنات في الطبيعة، الذين هتكوا حجاب المعجزة الذي غطى في أوروبا كل شيء».

* «لقد قرأ «ألبرت الكبير» (١١٩٣-١٢٨٠م) شيئا حول الجبر والهندسة، وألف كتابين عن الحساب كما تعلمه

على يد الإخوة موسى الثلاثة محمد بن موسى بن شاكر (٢٥٩هـ ٧٨٣م) ، وأحمد بن موسى بن شاكر (كان حيًا قبل ٢٥٩هـ ٨٧٣م) ، وحسن موسى بن شاكر (٢٠٠هـ ٨١٥م) - وثابت بن قرة (٢٤٨-٢٨٩هـ / ٨٦٢ ٩٠١م) . وبحافز من العرب اهتم بدراسة السكونيات والميكانيك .. وتطلب الأمر من هذا الرجل العنيد .. أن يبذل جهدا كبيرا من أجل الحصول على ترخيص استثنائي يخول له حق التعاطي والتعامل مع الفلاسفة الوثنيين (المسلمين) بوساطة من رؤسائه ، الذين حرموا المضي بالانحرف من خلال الاحتكاك بأولئك الكفرة (المسلمين) مرة وإلى الأبد » .

ولقد نص مرسوم سنة (١٢٢٨م) الكنسي : «إن على أعضاء الطائفة ألا يدرسوا الفلاسفة الملحدين .. وعليهم أيضا ألا يتعلموا الفنون الحرة إذن . ولا المبادئ الأولية أيضا كالحساب والتعداد ، وحساب الأعياد الكنائسية ، وأن استثناء خاصا منح لبعض الشخصيات » .

وكان الفلاسفة اللاهوت عندما يصل إلى علمهم أن شخصا ما يبحث ، يرفعون عقيرتهم : إنه ملحد ! .. لأنه يطالب بحق الفهم ، وبالحق في معاينة وتحليل ادعاءات السلطات .. وحين يعثرون على شيء غير مدون في مكان ما ، حينئذ يطالبون بإلصاق تهمة الهرطقة .. لقد نظرت الكنيسة إلى العلم بتقزز واشمئزاز ، وحذرت وخوفت الطامحين في المعرفة الإنسانية .

ولا عجب أن احتل مؤلف «سكوت إريوجينا» (٨١٠-٨٧٧م) الرئيس الرائع، النابع عن ألمعية في العقل، وعمق في التفكير، والذي يدور حول (تسخير الطبيعة) - يحتل المرتبة الأولى في قائمة الكتب التي حكم عليها بالمروق والمطاردة من قبل رابطة الرهبان، وعد في المقدمة، والأكثر قدما في الإلحاد حتى سنة (١٩٤٨م)، كما جاء في آخر إصدار رسمي شهر به دون هوادة.. لقد اتهم بأنه صبي طائش، وأكبر مفتر بالإلحاد الجنوني، والحجج الشيطانية المارقة، آثم، بشع، كافر بالله».

إن حكما باللعنة صدر حول كتاب (حول الطبيعة) لإريوجينا من (١٢٠٩م)، ومنع من الأديرة، وجمعت سائر النسخ المتوافرة وأحرقت ومن احتفظ بنسخة منه عرض نفسه للطرد من الكنيسة، وللحكم عليه أمام الرأي العام بالإلحاد».

«وعند «إريوجينا»، فإن الألوهية التي لا تدرك، هي التي تخلق الطبيعة، من حيث يخلق فيها كل شيء ذاته في خلق دائم، إن الله يبسط ذاته فوق كل شيء مثلما يكمن فيه، ومنه وبه كل كائن حي، والله هو الذي يسع كرسيه السموات والأرض، الفعال لكل شيء، وبدونه لا يتم شيء، ولا شيء سواه يمتد، لأنه هو المكان والمحيط لكل شيء، كل شيء من الله، والله في كل شيء، ولم يخلق شيء من هباء، بل منه وبه قد صار.

إن ما ذكر هنا يناقض كلية سائر المعتقدات المسيحية في الخلق، ويناقض الأفلاطونية، والأفلاطونية الحديثة، والأرسطوطاليسية».

«ولقد استخلص (ليوجيا) أن الطبيعة لم تعد الأسفل، المعتد به.. بل إنها خلقت وسخرت للإنسان.. إن لها قيمة، وكينونة وحركة في ذاتها.. لقد تحررت الطبيعة لتصبح موضوع بحث علمي».

* «وكان أفلاطون قد شدد على استحالة المعرفة بواسطة الحواس.. وجمعت الكنيسة والأفلاطونية والأرسطوطاليسية على وصف الأرض وما يعيش عليها، كشيء وضيع، وتسبح مرتبة في السافلة، ومادة معتمة، فوضوية، في مقابل عالم فوقي، مثالي، علوي، خليق بالطموح».

* «لقد كان الله، في نظر القرون الوسطى - الواقع تحت تأثير شديد للأفلاطونية الحديثة - هو: المطلق، والسكون الأبدي اللامتحرك، في حين كانت الحركة، على الطريقة الأوروبية، بمثابة شيء رديء يبعث على الغيظ.. وهكذا قوبل كل تقدم باستنكار، وأصبحت كل محاولة لتغيير الحالة الراهنة وإحلال شيء جديد محلها، أقرب ما يكون إلى الإثم..».

«وفضلا عن الخوف من التحديث، عم ازدراء العمل اليدوي الذي جعل العقلانيين يفضلون التعامل مع الأدوات اليدوية العقلية الخالصة على المادة الوضيعة سهلة التناول».

أولم يعد «توما الأكويني» (١٢٢٥ - ١٢٧٤م) إلى الأذهان تفاهتها إبان الخصومة في القرن (١٣)؟ في هذه النقطة أيضا

يتفق تفكير المسيحي واليوناني: إن أدنى قدر يمكن لأحد أن يلم به عن الأشياء الواقعة تحت نظره، أجدر بالطموح من إلمامة معنية بالأشياء التافهة.

* لقد ألح الإنجيل على خطيئة آدم، مبينا أن جميع الويلات والشرور المستشرية في هذه الدنيا مصدرها الأول آدم..

لكن الإسلام لا يرى هذا، إذ ينص على أن الله غفر لآدم بعد أن تاب:

﴿فَتَلَقَّىٰ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

[البقرة: ٣٧].

والإسلام لا يقول أساسا بوراثة «الخطيئة الأصلية»، ولا بأن أول إنسان كان أثيما؛ بمعنى أن الخطيئة أو الإثم ليس أصل الفطرة التي فطر الإنسان عليها، بل إن الإثم قد يغتفر إذا تاب الإنسان توبة نصوحا؛ حيث يغفر التواب الرحيم الذنوب...»[١٥].

***

(١٥) «الله ليس كذلك» (ص٧٧، ٧٨، ٣٧)، و«العقيدة والمعرفة» (ص٢١، ١٥٩، ٢٣، ٤٢، ٢٠١، ٢٠٣، ١٩٤، ١٨٧، ١٨٢، ١٨١، ١٦٧، ١٦٥، ٨٣، ٩٤، ٥٢، ٥٣، ٦٣، ٥٥، ٧٩، ٢٢٧، ١٩١، ١٩٢)، و«فضل العرب على أوروبا» لذات المؤلفة (ص٢٧٤، ٢٧٥، ٩٠، ٩١)، ترجمة: د. فؤاد حسنين علي، طبعة القاهرة، سنة (١٩٦٤م).

(٦)

رفض المسيحية للفكر اليوناني

* «لقد عد القديس «هيرونيموس» الفكر اليوناني لعنة على البشر. فترجم الإنجيل إلى اللاتينية. بحيث قلبت «الفولجاتا - Vulgata» - (الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس لهيرونيموس) سنة (١٥٤٦م) - كلا من هوميروس وفرجيل (٧١ - ١٩ق.م) رأسا على عقب»...

* «ولذلك كانت الحرائق المدمرة، وأعمدة الدخان المتصاعدة فوق الإسكندرية. كنز المعرفة اليونانية والهلينية على مدى مئات السنين - تلك الحرائق التي أشعلتها المسيحية في هذا التراث اليوناني.

إن السماء تصطبغ باللون الأحمر فوق عاصمة المعرفة على دلتا النيل. هذا في الوقت الذي تتهاوى فيه درر لا تعوض من الأشعار والفلسفة اليونانية والعلوم الإغريقية ضحية لعمليات إبادة من تدبير التعصب المسيحي.

إن إحراق مكتبة الإسكندرية الكبرى والذي يصرون بعناد على تحميل العرب مسئوليته. رغم أنهم فتحوا المدينة. بعد انقضاء أربعة قرون على ذلك الحدث. قد دل هذا الحريق على أنه - بعد دراسة وافية - هو من أعمال الإبادة المسيحية. فضلا عن أنه دعاية موجهة ضد الإسلام.

(٧)

العقل الإسلامى

* «إن الفكر العربي يحتفل بالواقع الحقيقي. بينما نرى الفكر الهندي يحتفل بالناحية الذاتية كل الاحتفال. خلافا للفكر اليوناني الذي ينتقل طفرة من الجزئي إلى الكلي، من الحقائق المفردة إلى الفكرة المجردة. فالفكر الإغريقي لم يكن همه الحقائق الملموسة المحسوسة. وإنما وقف بحوثه على مثله العليا. وتحركت دراساته النظرية حرة طليقة من إسار التأثيرات المادية في مجال الفكر البحت.. أما العرب. فقد سلكوا نهجا وعرا. صعودا من أسفل الدرج في تسلسل تدريجي يتغلغل دنيا الحقائق العلمية كل منها على حدة: المنهج التجريبي القائم على الرصد والملاحظة دون ملل أو كلل. والقياس. والمعادلات والحلول الرياضية. والترقي في صبر وكبد من الخاص إلى العام. ولئن كان اليوناني في جوهره من فلاسفة الطبيعة (مع وجود استثناءات) فإن العربي قد غدا عالم الطبيعة بالمعنى الحرفي للكلمة. ومخترع علم الطبيعة التجريبي. ولقد عبد العربي بآلاته حقول العلوم البكر الوعرة تعبيدا. ومهد طرق البحث تمهيدا.

* «ومن الثابت أن العرب توسطوا لأوروبا في نقل التراث القديم. بعد أن أنقذوا من الضياع ما تبقى من الأعمال التى تعرضت للدمار بمرور القرون وبسبب التعصب المسيحى. فى

واحدة من أكبر عمليات التنقيب والإنقاذ المنتظمة في تاريخ الفكر البشري.. وفي وقت قصير آتت البذار اليونانية والهندية غلالا فائضة، بعد أن أجدبت الحضارة اليونانية منذ زمن بعيد.

هل أحدث الرومان أو الفرس الذين كانت المعرفة تحت تصرفهم، ما يمكن مقارنته بهذا؟

إنه التسامح الإسلامي الذي أتاح للعالم الإسلامي أن ينهل من مصادر المعرفة، حتى الوثنية: «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها».. في حين أن بولس الرسول قذف «الكافرين الباحثين عن الحكمة» وسخر «تيرتوليان»: «أي توافق يوجد بين الأكاديمية والكنيسة؟ وأي شيء يربط أثينا والقدس؟».. وقد وصف الأب الروحي «أوغسطين» الفضول الملحد بأنه ضرب خطير من المرض..

لقد كانت العبادة – في الإسلام – هي التطبيق السلوكي للمعرفة، منذ الوهلة الأولى...»

* «وعلى حين يصنف اليونانيون البشرية، في ضوء رؤيتهم المزدوجة، إلى شيئين مميزين كل التميز:

إما وإلا، هلينيين أو برابرة، أبيض أو أسود، وعلى حين نجد أن الاصطفاء المسيحي الجنوني المزدوج، إما مؤمنون أو غير مؤمنين.. نجد المذاهب المختلفة قد عاشت بين ظهراني المسلمين، فلم يفكروا يوما في أن يشنوا عليها حربا مقدسة.. فالفكر العربي لا يكاد يوجد فيه أبيض أو أسود، إنه يقر تعددا،

لكن هذه القاعدة لا تنطبق على العالم العربي الإسلامي، الذي زخر - على العكس منهم - بالإنجازات العلمية المهمة في تاريخه المبكر بالذات.

إن السيادة الإسلامية في الشرق خلقت في وقت قصير حضارة مزدهرة امتد بنيانها زهاء ستة إلى ثمانية قرون. حتى منغوليا في الشرق الأقصى سنة (١٢٥٨م)، وفي إسبانيا سنة (١٤٩٢م) إلى أن اغتالتها الصفوة الروحية المسيحية. وضحت بمحتويات المكتبات الضخمة».

* «وإذا احتقر اليوناني الحر العمل البدني، كاليدوي والزراعي، أو عمل الرقيق في عقل غير مفيد، باعتبار أن هذا العمل غير كريم (شريف)، واعتبر الاستعمال التطبيقي للمعرفة بمثابة حط من شأن الفكر وتدنيس للمثل العليا لرؤية الأفكار الصادقة. فإن هذا يتعارض تماما مع الواقع التجريبي للعرب.. وهنا تكمن جذور نوع معين من توجيه المعرفة، والتي بسببها أصبح العرب يتمتعون بوزن خاص، علميًا وتاريخيًا، وبتأثير حاسم على أوروبا.. وبفضل هذا الفرق كان العرب أكثر من مجرد وسطاء للتراث اليوناني، أكثر من سعاة بريد للقديم.. فلم يرتضوا أن يرددوا كالببغاء معارف القدماء، وإنما ابتكروا شيئا خاصًا وجديدا».

«لم يعمل العرب على إنقاذ تراث اليونان من الضياع والنسيان فقط - وهو الفضل الوحيد الذي جرت العادة على الاعتراف

به لهم حتى الآن، ولم يقوموا بمجرد استعراضه، وتنظيمه، وتزويده بالمعارف الخاصة، ومن ثم إيصاله إلى أوروبا، بحيث إن عددا لا يحصى من الكتب التعليمية العربية حتى القرنين (١٦ و١٧) قدمت للجامعات أفضل مادة دراسية، وقد أصبحوا - وهذا أمر قلما يخطر على بال الأوروبيين - المؤسسين للكيمياء والفيزياء التطبيقية، والجبر، والحساب بالمفهوم المعاصر، وعلم المثلثات الكروي، وعلم طبقات الأرض، وعلم الاجتماع وعلم الكلام.

***

وإلى جانب الابتكارات والاكتشافات الفردية التي لا حصر لها في سائر العلوم التجريبية - التي إما أنكرها وإما نسبها الكتاب الأوروبيون إلى الغير - فقد وضعوا في يد العالم الأداة المتكاملة الجاهزة، ألا وهي النظام العددي والحسابي، ومناهجهم العلمية الطبيعية في مجال البحث التجريبي، الذي من العسير تقويم دوره الفعال في التطور العلمي الأوروبي».

«إن عددا كبيرا من الأعمال اليونانية والإغريقية لـ: «أيوكيد»، و«جالينوس»، و«بطليموس» وغيرهم.. قد تم تجاوز بعضها من قبل العرب الذين أمسكوا بزمام التراث اليوناني على مدى مئات السنين، وواصلوا السير فيه وتعدوه»(١٩).

* «وبالعرب أيضا، أصبحت الحقائق المتفرقة موضوعا

(١٩) «العقيدة والمعرفة» (ص١٥٨، ١٥٩، ١٠٦، ١٠٧، ١٣٣، ١٩).

لسائر البحوث. وهنا أيضا تولد الصعود التدريجي المتأني، الذي يركن إليه، من الحالات الفردية إلى العموميات. وذاب النهج الاستقرائي ليشق طريقه لمنهج علمي. فيه تحاصر الحقائق بمشاهدات ومقايسات لا تعرف الكلال. وبعدد لا يحصى، وصبر لا ينفد، وعمل منتظم، من التجارب المتكررة، تحت شروط مختلفة، تم الحصول على قواعد وقوانين ثابتة. وأعيد النظر في النظريات، فمنها ما استبدل، ومنها ما اعتمد في ضوء من حرية الفكر، الذي ظل الشك كالشوكة في جنبه».

«ولكي نفهم ملمح العلم العربي، ونمطه المتميز بالمقارنة باليوناني، يجب أن ندرك أنه في حين يتوق اليوناني إلى التجرد من الحس إلى المصادفة، والتغاضي عما هو فردي، كي يصعد نحو المفهوم المجرد، تحتل الخصوصية الفردية مكان الصدارة بالنسبة للعربي...».

* «وفي الوقت الذي كانت فيه أوروبا منغلقة، تحدق في وحل المؤسسات السلطوية، محرومة تماما من الوقوف على قدمين ذاتيتين، تعالت في العالم العربي دائما أبدا أصوات: «لا أستطيع أن أجاري أرسطوطاليس في هذه النقطة»، «لقد لاحظت...»، «أنا نفسي قد رأيت...»، «لأننا برغم إجلالنا الكبير لجالينوس، فإن ما شاهدناه بملء أعيننا أقرب إلى التصديق».

إن النقد البناء للطبيب عبداللطيف البغدادي (٥٢٠ - ٦٢٨هـ/ ١١٢٦ - ١٢٣١م) - المتواضع، الذي كان مدرسا في

سائر العواصم تقريبا - فجالينوس (١٢٩ - ١٩٩م) قد درس بأن الفك الأسفل يتكون من عظمتين مجتمعتين معا. ولقد كتب البغدادي: «إلا أننا شاهدنا ألوفا من العظام والهياكل. وقمنا بفحصها بدقة متناهية. وتحصلنا على نصيب وافر من المعرفة من هذه الدراسة. وهي معرفة ما كنا لنتحصل عليها من دراسة الكتب. وكان جالينوس قد علمنا. بأن الفك الأسفل يتألف من عظمتين يجمع بينهما نسيج ضام. غير أنا عاينا ألفي عظم ولم نجد فيها فكا واحدا مؤلفا من عظمتين. إنه عظم واحد دون أي رفو».

وصوت آخر من ابن النفيس (٦٨٧هـ - ١٢٨٨م): «إن ما قاله جالينوس خطأ». فلقد اكتشف ابن النفيس لأول مرة. خطأ جالينوس حول دخول الدم من خلال ثقوب الحجاب الحاجز من حجرة إلى أخرى (الأذين والبطين) فصحح الدورة الدموية الصغرى بمساعدة التشريح. وهو اكتشاف انتحله بعده بثلاثة قرون الإسباني ميخائيل سيرفت. لقد كتب ابن النفيس: «لكي نصف مهمة كل عضو على حدة. نستند إلى ملاحظة دقيقة ودراسة صريحة. دون الاكتراث ما إذا كانت تلك من علوم الأولين الذين سبقونا أم لا».

* لقد قال النظام (٢٢١هـ - ٨٣٦م): إن أول شرط للمعرفة هو الشك.

وبهذه الكلمة المدهشة، وفي زمن سادت فيه العقائد السلطوية، وجه إبراهيم النظام علماء العرب نحو الطريق. وبذلك أصبحت التربة ممهدة أمام التجربة العلمية.. أي التعرف على الشيء عن طريق أفضل معرفة. اكتشاف الطبيعة الحقيقية للأشياء، كما هي عليه، وبالمقدار المتاح للإنسان. وهذا برنامج عمل لا يسلم بشيء قبل أن تؤكده التجربة..

لقد تطلب العلم العربي:

١- التسامح السخي مع كل ما هو غريب، حتى في القضايا الدينية.. والتسامح مع معرفة الكفار.

٢- استعداد النبي بالوحي، وعبر الهداية الدينية الخاصة والعالمية، لا لقبول المعرفة البشرية العقلانية فقط، بل والحث عليها، حتى إن مداد طالب العلم ارتفع إلى درجة التقديس، وأصبح بمثابة دماء الشهداء، وليس كما فعلت الكنيسة، حشر المؤمنين في حيز عقائدي ضيق، بعيدا عن المتنفس.

٣- ولوج الحياة الفعلية، والتوجه الدائم نحو الحاجات العملية، التي أدت إلى التقارب بين النظرية والتطبيق، لا كما كانت عليه الحال مع اليونانيين البعيدين عن الحقيقة، المتنقلين بين الأعمدة الخرساء، أو غير المعقول، كما هو الشأن في الدارسين المسيحيين المتزمتين من فلاسفة أوروبا في جدلهم العقيم، الذين كانوا ينظرون إلى العمل نظرة مهينة.

٤- الاستعداد للشك والإصرار على عدم الانصياع للعقائد والآراء الجاهزة، والإقبال على سبر غور كتب المعرفة الذاكية بالحواس والفهم، وشرحها بشهادة العينين والأذنين..

* لقد قال الطبيب الغرناطي والوزير ابن الكاتب: «إن القاعدة التي يجب أن ننطلق منها دائما هي أن برهانا اقتبس من المنقول، عليه أن يخضع للتغيير، حين يقف على النقيض الظاهر مما تشير حواسنا إلى صدقه».

ولقد تعرف هذا الطبيب العربي إلى طبيعة الأمراض التي وصفت من قبل اليونانيين بأنها دنس أرضي، ومن أوروبا المسيحية على أنها عقاب رباني.. فعزى وباء الطاعون إلى العدوى، وقال: «إن وجود العدوى قد ثبت بالتجربة، وبالبحث، وبالفهم، وبالتشريح والأدلة الموثقة، وهذه العوامل تهيئ الدليل غير القابل للنقض.

إن حقيقة العدوى تتأكد للباحث الذي يلاحظ كيف أن الشخص الذي يحتك بمريض يصاب هو أيضا بالمرض، في حين أن الشخص الذي لا يحتك لا يصيبه المرض، وكم أن نقل المرض في بيت أو ربع يتم بواسطة لباس أو إناء. علاوة على ذلك، فإن العدوى قد ثبتت عن طريق وافد من قطر يعاني من الوباء في مدينة ذات ميناء، وعن طريق حضانة الأشخاص المعزولين».

* * *

* ولقد كتب ثابت بن قرة (٨٣٦هـ - ٩٠١م) إلى زميله في الترجمة إسحاق بن حنين (٢٠٢ - ٢٩٨هـ / ٨١٧ - ٩١٠م) حول ألواح بطليموس - التي ثبت خطؤها: «نحن - بطبيعة الحال - لسنا بعد في وضع يمكننا من الإجابة القاطعة عن مثل هذا السؤال. والحسم الموضوعي فيها كان ليتم لو أننا قدرنا على مراقبة الشمس في الفترة الواقعة بين بطليموس ويومنا هذا. فإذا وجدت إحداها لدى المؤلفين اليونان، فأرجو إفادتي بها، بحيث أتمكن من تكوين حكم أكيد حول ذلك. وأود أن أضيف، بأنه، بعد جلاء هذه النقطة، فإنني سوف أعالجه هنا، غير أنه مازال مظلما، ويبدو أنه مجرد تخمين. وعليه لا يمكن قبول هذا الكتاب؛ لأنني - من جانبي - لا أريد أن أتبنى ما هو ليس بحكم الأكيد، بل العاري من الشك من كل جانب».

***

* وثمة خاصية للعقل العربي في الحساب، كانت في صالح الثقافة والعلم التطبيقي والتجربة. وهي الحدس تجاه كبير الأعداد، والبهجة في المسائل الحسابية. لقد جعلوا الأرقام الهندية الغامضة، بواسطة الصفر، أداة طيعة منظمة، سهلة الاستعمال للتعداد العلمي والرياضيات التي غدت من علوم المستقبل، وبذلك تفوقوا بالخطوة الحاسمة على البابليين واليونان والرومان، وحتى على الهنود الذين اشتهروا بموهبتهم في الرياضيات، وعلى المسيحيين المثابرين في الإمبراطوريتين

الفارسية والبيزنطية، في المدن الآشورية وما بين الرافدين.

لقد حول العرب موروث اليونان في العدد والحساب من العلاقات الهندسية.. إلى تجبير وتربيض الحساب، ثم أخذه رياضيونا الأوروبيون، وظلوا محتفظين به حتى يومنا هذا[20].

***

* لقد كان جابر بن حيان (٢٠٠هـ ٨١٥م) الصيدلي هو «هيبوقراط» الكيمياء.. المؤسس لعلوم الكيمياء، والمتحدث باسمها حتى مطلع العصر الحديث.. كان باحثا أصيلا مستقلا، خلف دونه بطرقه التجريبية المبتكرة، واكتشافه لعناصر ومركبات كيميائية حديثة نظريات وتجارب الشرق واليونان الكيميائية، وحتى الهلينية ذاتها بمسافات طويلة، أحل، بما أجرى على الحيوانات من تجارب.. وقد تصدى بنقد لاذع لمعالجة الأولين للمسائل الكيميائية والفيزيائية، الفلكية والغيبية.

هنا يتضح دور العرب الأصيل الذي تنبع واقعيته وحقيقيته المبصرة من القناعة، وتقرب من الأشياء بمساعدة الوقائع والتفكير، اللذين بنى عليهما علمه، وبذلك أصبح النزاع مع التراث اليوناني أمرا محتما وقوعه.

والعلم لدى جابر ممكن فقط، حتى يتعرف ويستفسر المرء عن سبب وجود الشيء، وبفضل نظرة جابر الجديدة إلى الحقيقة،

(٢٠) (العقيدة والمعرفة) ص١٢٤، ١٢٥، ١٢٠، ١٢١، ١١٥، ١١٧، ١٢٠، ١٣٠، ١٦٥، ١٦٦).

يتجاوز جابر كيمياء الأولين المتفوقعة. ويطهرها من أحزانها التأملية غير العلمية. حين ينقي من كيمياء البابليين. واليونان. والمصريين المتأخرين. والفرس اللاهثين خلف المعجزة. العنصر السحري المجازي.. ويدعو من خلال تجارب عملية ومنتظمة إلى تحليل المواد الأولية. وإلى فرزها. وإلى تعريفها. وبدلا من طريقة الصهر البدائية والمستعملة حتى ذلك الحين للحصول على الذهب. كما كانوا يتوهمون. من المعادن. ابتكر محلولا حصل عليه من أحماض الملح وماء الملك (مؤلف من ثلاثة محاليل مركزة لروح الملح ، حمض النتريك) - كما نجح أيضا في الحصول على النشادر المعدني وعلى مشتقاته. الأمر الذي استبدلته الكيمياء القديمة بشكل جوهري.

وثمة فرع آخر يعد شيئا مثيرا للقرن الثامن. يعكس عبقرية جابر وبه بز العلماء اليونان والهليين أيضا من خلال تصوره للكيمياء العضوية. إن تحليل الجسم إلى العناصر الأولية التي يتكون منها، احتل جانبا جوهريا من علمه. وهو في النهاية، مرتبط بتحليل الكائن العضوي: فقد حضر من المواد الحيوانية والنباتية أشربة (الكسير) سجل مواصفاتها على أسس حسابية.

وثمة مؤلف من نوع خاص يتحدث عن السموم. قام جابر بتجريب تأثيرها على الحيوانات أولا.

على أن ولع جابر بالتجربة مضى إلى مدى أبعد. إنها المغناطيسية التي كانت تأسر لبه. والتي كسب بها قصب

الفارسية والبيزنطية، في المدن الآشورية وما بين الرافدين».

«لقد حول العرب موروث اليونان في العدد والحساب من العلاقات الهندسية .. إلى تجبير وترييض الحساب، ثم أخذه رياضيونا الأوروبيون، وظلوا محتفظين به حتى يومنا هذا»[٢٠].

***

* «لقد كان جابر بن حيان (٢٠٠هـ ٨١٥م) - الصيدلي - هو «هيبوقراط» الكيمياء .. المؤسس لعلوم الكيمياء، والمتحدث باسمها حتى مطلع العصر الحديث .. كان باحثا أصيلا مستقلا، خلف دونه - بطرقه التجريبية المبتكرة، واكتشافه لعناصر ومركبات كيميائية حديثة - نظريات وتجارب الشرق واليونان الكيميائية، وحتى الهلينية ذاتها بمسافات طويلة، أجل، بما أجرى على الحيوانات من تجارب .. وقد تصدى بنقد لاذع لمعالجة الأولين للمسائل الكيميائية والفيزيائية، الفلكية والغيبية.

هنا يتضح دور العرب الأصيل الذي تبع واقعيته وحقيقيته المبصرة من القناعة، وتقرب من الأشياء بمساعدة الوقائع والتفكير، اللذين بنى عليهما علمه، وبذلك أصبح النزاع مع التراث اليوناني أمرا محتما وقوعه.

والعلم لدى جابر ممكن فقط، حتى يتعرف ويستفسر المرء عن سبب وجود الشيء، وبفضل نظرة جابر الجديدة إلى الحقيقة،

(٢٠) العقيدة والمعرفة (ص١٢٤، ١٢٥، ١٢٠، ١٢١، ١١٥، ١١٧، ١٢٠، ١٣٠، ١٦٥، ١٦٦).

يتجاوز جابر كيمياء الأولين المتقوقعة. ويطهرها من أجزائها التأملية غير العلمية، حين ينفي من كيمياء البابليين، واليونان، والمصريين المتأخرين، والفرس اللاهثين خلف المعجزة، العنصر السحري المجازي.. ويدعو من خلال تجارب عملية ومنتظمة إلى تحليل المواد الأولية، وإلى فرزها، وإلى تعريفها، وبدلا من طريقة الصهر البدائية والمستعملة حتى ذلك الحين للحصول على الذهب، كما كانوا يتوهمون، من المعادن، ابتكر محلولا حصل عليه من أحماض الملح وماء الملك (مؤلف من ثلاثة محاليل مركزة لروح الملح، حمض النتريك) - كما نجح أيضا في الحصول على النشادر المعدني وعلى مشتقاته، الأمر الذي استبدلته الكيمياء القديمة بشكل جوهري.

وثمة فرع آخر يعد شيئا مثيرا للقرن الثامن، يعكس عبقرية جابر وبه بز العلماء اليونان والهلين أيضا من خلال تصوره للكيمياء العضوية. إن تحليل الجسم إلى العناصر الأولية التي يتكون منها، احتل جانبا جوهريا من علمه، وهو في النهاية، مرتبط بتحليل الكائن العضوي: فقد حضر من المواد الحيوانية والنباتية أشربة (الكسير) سجل مواصفاتها على أسس حسابية.

وثمة مؤلف من نوع خاص يتحدث عن السموم. قام جابر بتجريب تأثيرها على الحيوانات أولا.

على أن ولع جابر بالتجربة مضى إلى مدى أبعد. إنها المغناطيسية التي كانت تأسر لبه، والتي كسب بها قصب

السبق. إن المغناطيس بتأثيره يخترق صفائح النحاس السميكة. أجل. والمغناطيسية تحوله إلى معدن آخر. لقد قاس جابر حمولة المغناطيس تبعا لقدرة الرفع في وزنها وأثبت أنها تتناقص بمرور الوقت.. كما يستدل على ذلك من أقدم الوثائق التي يرجع تاريخها إلى عام (٨٥٤م) حيث اصطحب البحارة العرب حجر المغناطيس لتحديد وجهة إبحارهم في الرحلات الطويلة في حالة حجب الليل لنجوم السماء.

* ومن بين أبرز تلاميذ جابر بن حيان: الرازي الطبيب (٢٥١ - ٣١١هـ - ٨٦٥ - ٩٢٥م) الذي صنع من الكيمياء علما للشفاء. والذي كان إلى عهد قريب فرعا من فروع الطب. فرفعه إلى مرتبة مستقلة. علم يقوم على مبدأ خاص. فإذا ما اشتغل جالينوس. ومن بعده ديوسكوريدوس (القرن الأول الميلادي) ذات مرة بالمستحضرات النباتية. فقد قدم الرازي الآن - واضعا أستاذه نصب عينيه - الكيمياء غير العضوية كعلم تجريبي وعن إدراك سابق في خدمة الطب. وجعلها طوع الاستعمال للعلاج الطبي بهدي التجارب على الحيوانات. وقد اتضح له أنه من خلال تحسين استبدال المواد الطبيعية صناعيا. يمكن الحصول على أدوية جديدة لا يمكن وجودها في الطبيعة. وهذه إحدى مكتشفاته الحديثة. بالقياس إلى القديم. وفضلا على المواد النباتية والحيوانية. كالدم والحليب والبول والسموم. فقد كان السباق إلى استعمال عدد كبير من المعادن. والملح. والبوريك

(بوراكس) - وهي كلمة من أصل عربي - والزاج، والمعادن، والأحجار، والزئبق، والكبريت، وسلفات الزرنيخ.. فقبل استعمالها، اختبر حسب أفضل منهج - منهج عربي منذ أيام جابر - المواد المستحضرة بطريقة تركيبية في التجارب على الحيوان وبالتجريب على القردة. طور مركبات الزئبق كعلاج على سبيل المثال - لبعض أمراض الجلد. وفي حوزتنا مواصفات كاملة على مثل هذه الاختبارات.

وفي حقل التجارب على الحيوانات، استكمل صيدلة الحشيش والأفيون لغرض التخدير، الذي أثراه العرب من عدة جوانب، في حين أنه في أوروبا العصر الوسيط، سرعان ما كان يرتاب في أمره على أنه من أعمال الشعوذة ساعة تدريسه فيلاحق ويطرد!..

وكان الرازي أول من حضر أحماض الكبريت المهمة. وقد درس بالتفصيل اثنين وثمانين سمًا متفرقًا من عالم الحيوان، والمعادن، وعالم النبات، وعلى سبيل المثال، سموم الفطريات، ويعتبر، بالتعرف إليها ومعالجتها ومداواتها لسموم مضادة - يعد مكتشفًا ومخترعًا - ومازال المستهلك حتى يومنا هذا، يبتهج في مودة زائدة بالأدوية سيئة الطعم، قدمها الرازي في أقراص غلفها بقشرة ظاهرة.

وأخيرًا، ومن السوائل المتخمرة المقواة، أو المحتوية على السكر، صنع الكحول - كلمة عربية - ومعناها: الناعم.

أما ما يتعلق بي. فإني سوف أعالج في كتابي كل ما هو ضروري للحفاظ على الصحة وعلاج المرضى.. الأمور التي يجب أن يعيها كل طبيب مقتدر ذي ضمير حي....

* وفي الأندلس ألف الجراح أبو القاسم الزهراوي (٣٢٤-٤٠٣هـ/ ٩٣٦-١٠١٣م) كتابا جامعا في الطب يقوم على التجارب الشخصية، وضع فصله الثالث حجر الأساس للجراحة الأوروبية، ورفع الطب الجراحي - الذي احتقرته المسيحية - كفرع طبي مستقل، يستند إلى التشريح العربي، إلى مصاف الاختصاصات الأخرى سواء بسواء».

* «وفي الأندلس، ألف الجراح ابن زهر (٤٨٤-٥٥٧هـ ١٠٩١-١١٦٢م) كتابه الرئيس «المداواة بالحمية والتنفيس» مرشدا للطب، غرضه الأساسي تثقيف المبتدئين من الجراحين من خلال قصص المرضى والأطباء المبرزين».

* «ومخطوط الرازي «حول الحصبة والجدري» قد ظل يطبع في أوروبا حتى القرن (١٩)».

***

«إن العرب هم الذين أدخلوا النور والنظام على أعمال الأقدمين، التي كان يكتنفها الغموض في وضعها المتفكك.

وهذه شهادة باعتراف جماعي ممن أرخ للطب. ولقد أعطتهم أوروبا - وهو أمر تندر معرفته اليوم - الأفضلية كأساتذة.

وأخذت عنهم معارفها الطبية، أكثر مما أخذت من مصادر اليونان المشوشة المحدودة».

* يقول الطبيب العربي ابن الخطيب (٧١٣-٧٧٥هـ/ ١٣١٣-١٣٧٤م): «إن القاعدة التي يجب أن تستند إليها دائما، هي أن برهانا تاما، أخذ بطريق النقل، ينبغي أن يخضع للتعديل إذا ما اتخذ موقفا مناقضا مما يشير إليه إدراكنا الحسي»... ويقول ابن البيطار (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م): «كل ما كتبته هنا نابع من تجربتي الشخصية، أو من تقارير أمثال هؤلاء المخالفين، الذين نعرف عنهم أنهم كتبوا ما وجدوه ثابتا من خلال التجربة الخاصة»[٢٢].

* ومما لا سبيل إلى تجاهله، عدد الفلكيين العرب الذين لم ينساقوا خلف الاعتقاد السائد الأعمى، الذي قابلت به أوروبا في القرون الوسطى، أمير الفلك الهليني بطليموس، بل أعادوا النظر في النتائج التي توصل إليها من خلال المشاهدات الجديدة والحسابات والنظريات المستحدثة فحسنوها، وصححوا الأخطاء، وتجاوزوها في بعض المسائل..

لقد وضع الفلكيون اليونان بين أيدي العرب بعض أجهزة القياس، غير أنها سرعان ما عجزت عن تلبية المتطلبات المطروحة للقياسات التي يحتاج إليها العرب لأغراض العبادة اليومية، ولكونهم تقنيين غزيري الخواطر، وميكانيكيين

(٢٢) العقيدة والمعرفة (ص١٥٤-١٥٧، ١٨٠، ١٧٠).

وقد تم لجابر والرازي، ومن تلاهما وصف عدد كبير من المركبات الكيمياوية، ومن بينها أكسيد الزئبق، والزنجفرة، والزرنيخ، ونترات الفضة، والشب - كلمة عربية أيضا - والزاج الأزرق، والحامض الملحي، ومحلول البوتاسيوم، ومحلول النطرون، ومستحلب الكبريت، ومستحلب الكبد الكبريتي، وأشياء أخرى.

وقد تحصلوا على الكحول النقي الذي استعمل في الجراحة، وميزوا بين الأحماض والقلويات، وراقبوا زيادة وزن المعادن بالتأكسد والتكبرت، كما عرفوا قبل غيرهم أن النار تنطفئ بمنع الهواء، وطوروا العمليات الكيمياوية الأساسية، كالتبخير، والتصعيد، ومزج المعادن بالزئبق، والتبلر، والتلكس، والتصفية والتقطير، بحيث فرقوا بين التقطير المباشر بواسطة الحمام الرملي أو المائي.

ولأجل هذا الغرض، وضع صانعو الزجاج السوريون والمصريون - تحت تصرفهم - إنتاجهم الرفيع في فن تكوير الزجاج بواسطة النفخ، والذي صاغوا من مصهوره اللزج الأشكال التي يريدون، ومن هنا وضعت صناعة الزجاج قدمها بواسطة المصنعين العرب في مورانو بإيطاليا، وغزت بجمالها غير المعهود أوروبا منذ القرن (١٣)، ونخص بالذكر الحلبي منه، الذي كانت سلعه الزجاجية تمثل إحدى أكثر السلع المصدرة إقبالا، وصدرت إلى المختبرات العربية القوارير

الزجاجية، وأنابيب الاختبار مع الأنبيق والعدل، الذي اخترعه العرب للتقطير، والذي مازال يحمل الاسم العربي حتى الآن.

وإضافة إلى الفرن الآلي المستعمل من قبل الكيمياويين، صمم الطبيب الأندلسي أبو القاسم الزهراوي (٣٢٤ - ٤٠٣هـ / ٩٣٦ - ١٠١٣م) فرنا خاصا للتقطير بشكل آلي. ومن أجل إثبات الوزن النوعي لمادة قيد الاختبار وتثبيتها، ابتكر ميزانا حساسا بخمس صحاف، إحداها تطفو فوق سطح الماء»[٢١].

***

ولقد كانت براعة العرب في التجربة وإبداعهم للمنهج التجريبي، سبيلهم إلى نقد الموروث العلمي القديم...:

* فعلي بن عباس - طبيب عضد الدولة (٣٣٧ - ٣٧١هـ / ٩٤٩ - ٩٨٢م) يقول: «لم أجد بين مخطوطات الأطباء الأقدمين والمحدثين كتابا كاملا، يحتوي على كل ما هو ضروري من أجل تعليم فن الطبابة، هيبوقراط كتب باختصار شديد، وكثير من تعابيره ضبابية وتحتاج إلى شرح.. وجالينوس ألف عدة كتب لا يحتوي كل منها إلا على جزء يسير من فن الطبابة، غير أن كتبه مفرطة الطول، كثيرة الإعادة والتكرار، ولم أجد له كتابا واحدا متكاملا ومناسبا لتعليم المتدربين».

(٢١) العقيدة والمعرفة (ص ١٣٤ - ١٣٨).

مهرة، فهم يسعون دائما إلى التحسين، ويجرون تعديلات، ويفكرون في الجديد، ويطورون في أساليب مشاهداتهم وأدوات القياس المختلفة لديهم نحو الكمال، بينما يأخذها الغرب عنهم، ويستعملها على صورتها دون إدخال تعديلات عليها حتى عصر ابتكار التلسكوب، وفي هذه الأثناء تحولت المراصد الفلكية إلى منشأة لا غنى عنها، تم بناؤها من قبل الأمراء الهواة وطلاب العلم، وغالبا ما ارتبطت بأكاديمياتهم، ومن أشهر هذه المراصد، المرصد الذي بناه المأمون (١٩٨-٢١٨هـ/ ٨١٣-٨٣٣م) في بغداد، وفي سامراء.. وفي دمشق، ومرصد العزيز بالله (٣٦٥-٣٨٦هـ/ ٩٧٥-٩٩٦م). والحاكم (٣٨٦-٤١١هـ/ ٩٩٦-١٠٢٠م) في القاهرة، ومرصد عضد الدولة (٣٣٧-٣٧١هـ/ ٩٤٥-٩٨٢م) في بغداد، ومرصد ملك شاه (٤٦٥-٤٨٩هـ/ ١٠٧٣-١٠٩٢م) في نيسابور، ومرصد أولوغ بيع في سمرقند».

* «لقد كان البيروني (٣٦٢-٤٤٠هـ/ ٩٧٣-١٠٨٤م) أحد أهم علماء العرب في عصرهم.. ولقد ذهب في ابتلائه (اختباره) الناقد لعقيدة الهليتيين الفلكية مذهبا بعيدا، بحيث رفض صورة العالم البطليموسية الشاملة للشمس الدائرة حول الأرض.. وفي رأيه أن الشمس ليست هي المسئولة عن تناوب الليل والنهار، بل الأرض ذاتها التي تدور حول محورها مرة في اليوم، ومرة تنتقل فيها حول الشمس في عام. فظل البيروني يقف

وحيدًا أمام المعتقد السائد حول فكرة «الزحزحة المقدسة».

* «واكتشاف البقع الشمسية على يد ابن رشد (٥٢٠-٥٩٥هـ/ ١١٢٦م-١١٩٨م) الذي أقدم هو وزميله البطروجي (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) على رج العقيدة البطليموسية، وعلى تقديم تفسيرات أخرى لمنحنيات الكواكب.

ومارس ابن باجة الأندلسي (٥٣٣هـ/ ١١٣٨م) تأثيرات أشد بالنسبة إليه، فإن القوة لديه واحدة، وهي ذاتها، سواء منها ما يحرك الكواكب، أو التي تجعل تفاحة تسقط من شجرة، وهو الرأي الذي يجابه الازدواجية اليونانية. والذي يؤثر - بصفته فيزيائيًا - على جاليلي (١٥٦٤-١٦٤٢م) عن طريق العلاقة التي يفترض وجودها بين القوة - السرعة - والمقاومة في الأجسام المتحركة».

* «لقد أجرى الفلكي الكبير السرقلي (٤٢٠-٤٨٠هـ/ ١٠٢٩-١٠٨٧م) - في طليطلة - ما لا يقل عن (٤٠٢) مشاهدة. فكان أول من برهن على أن تغيير بُعد الأرض والشمس التي اعتبرها اليونانيون ثابتة: ملائمة (لتقدم نقاط تعادل الليل والنهار)، وقد قام جيرهارد - كريمونا، بترجمة مؤلف السرقلي هذا إلى اللاتينية: وعرف باسم المؤلف Amzache، وفي عام (١٥٣٠م) استشهد كوبرنيكوس (١٤٧٣-١٥٤٣م) في كتابه الذي نشر بالفرنسية تحت اسم De Revolution بهذا الكتاب، وبكتاب البتاني (٢٤٤-٣١٧هـ/ ٨٨٥-١٩٢٩م)..

* «ولقد تحدث الطبيب الطبري (كان حيًا قبل (٣٦٦هـ/ ٩٧٦م) عن كرة نحاسية ضخمة أثارت إعجابه في عام (٨٥٠م): «أمام مرصد في سامراء شاهدت جهازا أشرف على بنائه عالما الفلك والميكانيكيان الأخوان محمد وأحمد ابن موسى، وهو يشبه شكل الكرة، ويصور النجوم ورسم البروج، ويعمل بالطاقة المائية، فإذا أفل في السماء الفعلية نجم، اختفت صورته في نفس اللحظة من الجهاز في الوقت الذي يغيب تحت خط الدائرة التي تمثل مجال الرؤية. فإذا طلعت في الطبيعة صورة نفس الكوكب، أشرقت صورته أيضا على الجهاز فوق خط الأفق»[٢٣].

***

«على أن العامل المساعد الضروري للبحث والتجربة لدى العرب، هو الرياضيات».

لقد رأينا كيف أرسى الخوارزمي الأصول الطبيعية للرياضيات التي تمكن من جميع العمليات الحسابية، لكنه لا يكتفي بمساهمته تلك فقط. إنه يضع بين يدي زملائه الباحثين (جهازا يدويًا لا غنى عنه: الجبر أو علم المعادلات)، الذي يسمح بموجب هذا العلم استخراج العدد الصحيح، لعدد واحد أو أكثر من المجاهيل، وقد ألف كتابه في (٨٢٠م). وهو كتابه الثاني الذي دخل به التاريخ.

(٢٣) العقيدة والمعرفة (ص١٤٤، ١٤٥، ١٤٨، ١٢٨، ١٤٦، ١٤٧).

وهذا المؤلف البالغ الأهمية، الذي أدخل فيه الجبر ضمن نظام للمرة الأولى، حظي بتقدير كبير في العلم العربي، وأعارته أوروبا أهمية غير عادية.. ولقد تتلمذ ليوناردو - بيزا (أواخر القرن ١٢ وأوائل ١٣)، رياضي القرون الوسطى الكبير، على يدي الخوارزمي..

ومن كتاب الجبر لأبي كامل (١٣٢هـ - ٧٥٠م) الذي عاش في مصر، ومخطوطات البيروني وابن سينا (٣٧١-٤٢٨هـ/ ٩٨٠-١٠٣٧م) والقرشي نهل ليوناردو معارفه حول المعادلات من الدرجة العالية، وبلغ الجبر ذروته على يد عمر الخيام (٥١٧هـ/ ١١٢٣م) الذي اعتبر حجة في نظر الرياضيات القروسطية..

ولقد أصبح العرب، أيضا، المؤسسين للرياضيات الكروية، وهي حقل للعلوم لم يكن له وجود عند اليونان.. ووضع العرب الجيب، ونظريات المماس، والصيغ الأساسية لعلم المثلثات، وبذلك يكونون قد أحيوا حقلا غير معروف حتى ذلك الوقت، ما لبث أن احتل منزلة مرموقة في مجال الفلك والملاحة البحرية والمسح الأرضي».

إن بطليموس لم يعرف سوى وجهين من أوجه الاستعمال الفلكي، وهذه النقطة تلقي الضوء على الفروقات في الأوجه وحول طبيعة العلوم العربية، وهكذا يعرض الخوارزمي الأربع والثلاثين مسألة، ثم لا يلبث خلفه أن يتم العدد حتى الألف.

* «وعلى حين كان علم الحساب عند اليونان يعني التسلية بالتصرف في الأعداد، والترف الفكري المحض للمولعين بالتأمل.. مضى الفلكي والحسابي الرقاش بعلم الحساب نحو مرتبة أعلى على سلم الكمال، ففي كتابه «المفتاح إلى علم الحساب» قدم لنظام المراتب العاددية آخر شكل من الكمال، وذلك حين استبدل - كأول شخص (عالم) الكسور بالخط المرصوف: وعلم الحساب بالكسور العشرية، وهو إنجاز ما كان لبائعة البيض أو بائع الحليب التوصل إلى نتيجته من دونه في عالمنا اليوم، ولا كان حساب اللوغاريتمات ممكنًا بدونه كذلك»[٢٤].

* يقول ابن الهيثم: «وليس شعاعًا يغادر العين هو الذي يسبب الرؤية، وعلى الأغلب، فإن شكل الجسم الملموس يشع في العين، ويستبدل بجسمه الشفاف».

ويصف وصفًا دقيقًا عدسة العين، والملتحمة، والإفرازات، وأعصاب الرؤية التي ترسل انطلاقًا من الأجسام انطباعات الحواس.

هل تنشأ هنا صورة مصغرة بسيطة طبق الأصل؟ إن ابن الهيثم لا يحسم المشكلة بهذه السهولة. فاستنادًا إلى التجارب المختزنة، يتوصل الدماغ إلى الانطباعات الحسية الملتقطة - في الحالة الراهنة - إلى استنتاجات عن بعد وإلى شكل الجسم المدرك.

ترى، ما الذي جعله يتوصل إلى هذه النظرية الصاعقة حول الرؤية، وطبيعة الأشياء وإنجازات الحواس؟ فكونه فلكيًا،

(٢٤) العقيدة والمعرفة (ص ١٤٢، ١٤٣، ١٤٧، ١٣٢).

واعتماداً منه على مشاهداته، اكتشف أن سائر الأجرام السماوية ترسل ضوءاً ذاتياً، بينما القمر وحده يستقبل نوره من الشمس، ولقد اقتبس من ذلك تصورًا جديدًا عن طبيعة الإشعاعات الضوئية: من كل موضع في الجسم المقابل تجري مستقيمة في كل الاتجاهات. وقد برهن على ذلك الشيء في كل تجاربه بدقة حسابية.

وفي تجاربه التي أجراها.. قاس كل مجالات المبصرات الهندسية، وأحيا إحدى حقول الدراسة.. وفي ذات الوقت، وبينما كان الناس في ألمانيا يبذلون جهدهم، عند الخسوف لطرد الغول الذي ابتلع القمر، عن طريق العويل والصخب، في ذلك الوقت، كان الناس على النيل يتساءلون: كيف تحدث ظاهرة الخسوف، طالما أن القمر ذاته لا يضيء، بل يستقبل ضوءه من الشمس التي تكبره، ويظهر مع ذلك ظلاً، محجوبًا، جزئيًا أو كلية؟ وعلى الفور كون مصادر استيحائه، ودرس في ضوء أشد الاختلافات التجربة تباينًا لكل شيء يمكن أن يكون مفيدًا في كتابه «حول طبيعة التظليل» كما أحب أن يسمي كتابه - وقد سجل سبقًا كذلك، حين جرب بآلة تصوير ذات ثقب واحد، وهو نموذج لأقدم آلة تصوير دلته على انتشار الأشعة الضوئية المستقيم - وقلما كان يطمئن إلى نظره - وقدمت له العالم مقلوبًا من خلال انعكاس الصور. وفي هذا الصدد استخدم نفس الترتيب الذي لابد وإن كان بالمصادفة، استعمله ليوناردو

داڤنتشي فيما بعد. وقد عثر على تعليل لانكسار الضوء الذي يحدث عن طريق الوسائط كالهواء والماء والزجاج، وحسب من بعدها ارتفاع الغلاف الجوي الأرضي بما مقداره (١٥) كم تماما. وهو أمر يدعو إلى الدهشة. وأعمل الفكر في نشوء هالة القمر، والغسق. وقوس قزح، والتي فشل أرسطوطاليس في إعطاء تفسير فيزيائي لها من ذي قبل، وسلط معرفته كذلك على الأجهزة البصرية.

لقد بزَّ الكندي (١٨٥- ٢٦٠هـ/ ٧٩٦-٨٧٣م) في القرن (٩) معرفة اليونان بتجاربه على المرآة الحارقة، أما ابن الهيثم. فقد درس الانعكاس وحسبه في المرآة الحارقة (كرة ومقطع مخروطي)، وعثر على قوانين تأثير الكشاف، ولقد فحص تأثير الاحتراق والتضخيم، بواسطة المرآة المجوفة فقط، بل وبواسطة العدسة المجمعة المكبرة أيضًا، وابتكر كذلك أول نظارة للمطالعة، وقد برهن على تفوقه الهائل كمنظِّر ومجرب في التجارب التي أجراها على سير الأشعة داخل كرة، وهي تجارب ما لبث أن واصل تنفيذها بعقله نظيرٌ له - كمال الدين - من بعده بثلاثمائة سنة.

إن تأثير هؤلاء العمالقة العرب على الغرب تأثير هائل، لقد طغت نظرياته الفيزيائية البصرية، على العلوم الأوروبية حتى العصر الحديث، وعلى العلوم البصرية لابن الهيثم قامت كل بصريات الإنجليزى روجربيكون (١٢١١-١٢٩٤م)

حتى بولونيا (فيتلو) والإيطالي ليوناردو دافنشي (١٤٥٢ - ١٥١٩م). وحتى يومنا هذا، مازالت المسألة الفيزيائية الحسابية المعقدة التي حلها ابن الهيثم بمعادلته من الدرجة الرابعة، والتي تفشي مقدرته الكبرى في الجبر، على النحو الآتي تقريبًا: حساب نقطة في مرآة لها شكل قبة يُعكس عليها جسم من مسافة محددة في صورة معينة. مازالت تلك المسألة، تسمى باسمه (مسألة الحازم)...».

***

* «إن مؤلف ابن سينا في المعادن - وهو الذي ذاع صيته كطبيب ورياضي وفيلسوف - كان مصدرًا رئيسيًا للجيولوجيا الأوروبية حتى القرن (١٨)».

* «والشعب العربي الذي أحب التجوال، قد أنجب قبل ماركوبولو (١٢٥٤-١٣٢٣م) عددًا لا يحصى من الجغرافيين، منهم الإدريسي (٤٩٣ - ٥٦١هـ/ ١١٠٠ - ١١٦٦م) - من سبتة - الذي وصل إلى سواحل إنجلترا الغربية والبحر الأسود في القرن (١٢)، وصنف في بالرمو فيضا من الملاحظات ومخططات الخرائط والمقايسات الحسابية في مؤلف جامع يقع في سبعين خريطة، استغرق إعدادها خمس عشرة سنة، كان يشدها ككرة على الأرض ويجري تقييمًا لها، وفي عام (١١٥٤م) قدم لملك النورمان في صقلية خريطة للأرض نافرة أصبحت من بعدُ شهيرة، صنعها من الفضة، حدث ذلك فيما

كانت خرائط العالم في أديرة أوروبا توضع بحسب الإنجيل، يطوق فيها البحر اليابسة، وتقع الجنة في منتصفها.

والمسعودي (٣٢٤هـ/ ٩٣٦م) من بغداد الذي حملته مسائل علمية جادة على القيام برحلته الاستكشافية. والذي كتب استنادا إلى مشاهدات خاصة في بلدان الصين وسيلان وحتى إسبانيا: موسوعة في ثلاثين مجلدا: أرفقها بوصف للأرض، وبوصف مصور ضخم لعادات الشعوب.

وابن بطوطة (٧٠٣ ٧٨٠هـ/ ١٣٠٤-١٣٧٨م) الذي استمرت رحلته مدة أربعا وعشرين سنة. اكتشف فيها شمالي ووسط أفريقيا حتى النيجر، وآسيا الصغرى، والصين، وروسيا، وإسبانيا...»[٢٥].

***

* «لقد أصبحت المصادر الإغريقية العربية هي ألف باء العلم. وارتفع الاسم العربي في ذلك الوقت إلى درجة أنه لكي يفسح الأطباء والكيميائيون والصيادلة والفلاسفة الطريق أمام نتاجهم الفكري في الأوساط التخصصية، كانوا يطبعونه بالاسم العربي - اللاتيني لابن سينا: وماسويه الابن أو جابر؛ بحيث تعمل على شد اهتمام المتعلمين، ولقد ظلت الكتب المدرسية ككتاب القانون لابن سينا من المواد المدرسية الراسخة في الجامعات الأوروبية حتى النصف الثاني من القرن (١٧)».

(٢٥) العقيدة والمعرفة (ص ١٤٠، ١٤٢، ١٥١، ١٥٠).

* «ومن يدري ما إذا كان كولومبس (١٤٥١-١٥٠٦م) قد اعتمد في مغامرته على الخريطة العربية الأفضل في نظره؟».

* «إن العرب سبق واستعملوا البوصلة بالسفينة في القرن التاسع.. وأقدم وثيقة في هذا الصدد ترجع إلى سنة (٨٥٤م).

«إذا أصبح الليل حالك السواد، بحيث لم يُستدل بالنجم على الاتجاه، غُرست إبرة في قشة أو نبات الحلفاء، ووضعت فوق طشت فيه ماء، وحُركت بواسطة حجر مغناطيسي نحو اليمين، بحيث إنها تتجه لدى إقصائها المفاجئ - إلى وضع يظهر الشمال والجنوب، وقد جرت العادة في المحيط الهندي على أن يستبدل بالإبرة والقشة قطعة من الصفيح لها شكل السمكة، تظهر بالرأس والذنب إثر توجيه وهمي مفاجئ باتجاه السماء».

* «وفي الكتب العربية اشتم وجود أسلحة متفجرة، البيوض المتحركة المحترقة «التي تخرج نارًا لها دمدمة مثل الرعود».

ولقد استخدمها العرب في دمياط ضد جيش الملك القديس لودفيج (١٢٤٩م).. وكان الملك يصيح كلما انطلقت قذيفة: «عزيزي المسيح، احمني أنا وقومي!».. وفي سنوات (١٣٢٥م، و١٣٣١م، و١٣٤٢م) استعمل العرب مدافع البارود في إسبانيا. تمكنوا من تفريق جيوش الشمال الإسباني المدعمة من قبل الفرنسيين والإنجليز».

* «ولقد كانت المعاهد العربية مراكز تعليمية، ومؤسسات مغلقة، مقسمة إلى أربع كليات، وعلى رأس كل واحدة منها عميد، ولكل كلية عدد متماثل من الطلبة. هنا (٧٢)، وهناك (٨٢). ومن المنح الدراسية؛ لأن حصص الدراسة بلا مقابل مادي، وكان المدرسون يتقاضون مكافآت من الخلفاء أو الموقوفين، هذا في الوقت الذي كان يتقاضى فيه كل طالب دينارًا واحدًا في الشهر بالإضافة إلى القرطاسية اللازمة.

وكان الطلاب الوافدون من جميع الجهات، والمنتمون على الغالب إلى ديانات مختلفة، يكونون أربع فئات قومية في مساكن منفصل بعضها عن البعض الآخر.

وفي مدارس الأندلس، سمح أيضا للفرنجة بالدراسة. وضَمَّت الأبنية المشيدة على شكل مربعات للإقامة الداخلية، والخدمات، وفضلًا عن ذلك قد كانت تحتوي على عدة قاعات للمحاضرات، وصالات للعمل، ومكتبة كبرى، وبها تلحق هنا وهناك معاهد خاصة. ويمنحُ العميدُ المرشَّح - بعد إجراء امتحان له - إجازة في التعليم؛ وبذلك يتحصلون على «البكالوريا - كلمة عربية أدخلت إلى اللاتينية - على ذمة الراوي، بتخويل من السلطة بتعليم شخص آخر..

وإن طلبة أكاديمية الفنون العربية هذه. لم تكن سوى نسخة عن العربية الأصل».

* «لقد أرسل فريدريك الأول بارباروسا (١٦٥٧-١٧١٣م) جرهاردفون كريمونا إلى طليطلة، وجلب المحاربون الصليبيون والحجاج الخبرات والمعارف العلمية، والتحف التذكارية المفيدة، والأجهزة، واستوردت عبر جبال الألب المنتجات الوفيرة لعقول المبتكرين التقنويين العرب، وكذلك الساعات وأجهزة القياسات من جميع الأنواع، والرافعات ومولدات الطاقة، والعدسات والعدسات المكبرة، وغيرها من البصريات، فضلاً عن المناظر الفلكية، والمعدات الطبية، والمعدات المساعدة للكيمياء التطبيقية، هنا هبت في لفحات قوية مواد وفيرة للبحث لا يمكن تجاهلها، وقدمت محصلات ووسائل بصورة واضحة دفعًا مؤقتًا أحيانًا، وأثرت تأثيرًا تدريجيًا في أحيان أخرى. فأقبل الأوروبيون بحماس على المادة العلمية الجديدة، وأصبح لزامًا عليهم أن لا تملى عليهم الأمور من فوق إملاء، لقد صادف البذار العقلية القادمة من العالم الآخر (العربي) استعدادًا داخليًا. وهنا وهناك فقط وجدت التربة المواتية المناسبة للطلوع».

* «لقد هاجرت أقواس المساجد الإسلامية، إلى الكنائس القوطية في شارتر وريم وكولون وسالزبوري».

* «ومن أكبر إنجازات العرب في حقل الكيمياء شهادات عدد لا يحصى من المصطلحات المستعملة حتى وقتنا الحاضر، انتقلت إلى لغات أهل الأرض من المفردات العربية، وعلى

رأسها تأتي كلمة كيمياء، والأمبيق، والكحول، والبنزين، والبوراكس، ودروجري، والكسير، وقاليوم، ونطرون، وصودا، وتالكوم، وشيلاق، إلخ..

وبفضل مناهجهم العلمية طوروا - استنادًا إلى رأي المؤرخ الإنجليزي «كاستوم – Custom» - الكيمياء حتى هذا المستوى، بحيث إن اكتشافات الكيمياء العضوية كانت مضطرة لأن تعيدها إلى المستوى الذي رفعها إليه العرب...».

* «لقد أثرت العلوم التجريبية العربية تأثيرًا أشد من مجرد نوع شرارة انطلاق لخطة جاهزة للعقل الأوروبي.

.. لقد أمدت الاستعداد الموجود في الغرب بالمادة المشتعلة المفجرة، وأيقظت الاستعدادات العقلية التي كانت تغط في سبات عميق، وأطلقت العنان للقوى التي كانت لاتزال متخلفة، ووضعت التطور العلمي العملي لأوروبا في المسار الصحيح..»[٢٦].

***

(٢٦) «العقيدة والمعرفة» (ص١٨٥، ١٤٩، ١٧٢، ١٧٧، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٨، ١٩٠، ١٣٨، ١٣٩، ١٦٠، ١٦١).

(٨)

انتصار الفكر الأوروبى على النظرة اليونانية والمسيحية للطبيعة

* : وبعد قرون من التقلب في ازدراء الطبيعة ، والتمرغ في وهدة الإحساس بالذنب ، بدأت إرهاصات الإعجاب ، وتفتحت الأزاهير في الشعر أولاً ، مؤذنة بتنفس الصعداء ، بالإعجاب من معجزات الخالق ; وفي التفتح الصادق من الروضة الإلهية الندية ; ولعل أجملها ما نجده لدى فريدريك زوننبرج وفرانسيسكو فون آزيزي وغيرهما كثيرون .. كما أن أسلوب الكتابة لدى الفلاسفة الذين اقتبسوا عن إريوجينا مبدأه ; أخذت هي الأخرى في التفتح والفوحان ، وتحول إريوجينا إلى قدوة ، وطرقت مؤلفاته آذان أوروبا كلها ....

* «لقد أطلق «أدلهرد فون باث» (١٠٩٠ - ١١٦٠م) زفرات من أعماقه بعد رحلته في العالم الإسلامي ، وعودته إلى وطنه - بريستول - فكتب في رسالته (أسئلة إلى الطبيعة) مقارناً بين موقفين من الطبيعة :

«إننا إن تهاونا وقصرنا في تفهم أسرار هذا الكون الرائعة ، وجماله وجلاله البديع الحكيم ، ونحن نعيش فيه ، فإننا نستحق كل الاستحقاق أن نطرد منه طرداً ; لأننا نكون أشبه بالضيف الجاهل حرمة البيت وكرامته الذي أحله إياه المضيف .

لقد أتيح لي أن أتعلم شيئا من الأساتذة العرب الحكماء عن الانقياد للعقل، أما أنت فإنك تتبع صورة فرضتها عليك هيمنة مستبدة، كأنك مقيد إلى رسن، مأخوذ بمقودك،، ألا فلتعلمن أن الماشية التي يؤخذ بأزمتها إلى أية وجهة، إنما لا تستطع أن تميز أو تستبين إلى أين ولماذا تُقاد، ولا تمتلك إلا أن تتبع الزمام الذي يوثقها، كذلك فإن «سلطة المؤلفات» تقود عددًا ليس باليسير منكم، فأنتم أسراها المكبلون، منقادين لها كالدواب بسرعة تصديقكم الحيوانية».

* «ولقد عمل «نيقولاس فون كويس» (١٤٠١-١٤٦٤م) على رفض وتقويض كامل الصورة اليونانية والإنجيلية للطبيعة والعالم، تلك التي كانت سائدة ومقبولة من غير نقاش، والتي أعارها الناس آذانهم منذ ألفي سنة، لقد أزاح القذارة عن العالم، الذي كان يُنظر إليه على أنه شرير، وضيع، ملوث، مدعاة للازدراء والشك، وحتى الموت والفناء لم يعودا مؤشرين على النقص، ولم تعد الأرض أحط وأسفل نقطة في التداعى الدنيوي العاتي، لقد أزاح «نيقولاس فون كويس» هذا الركام عن العالم الذي جزأه اليونانيون والإنجيل إلى شذرات، وتلقاه إنسان الغرب في تلك الصورة عن طريقة التعليم الكنائسي».

* «وبالنسبة ليوناردو دافنشي (١٤٥٢-١٥١٩م).. فمن أي معين يا ترى نهل هذا المفكر ثاقب النظر المتعدد المواهب، ليشكل حدثا عالميًا؟..

إن الطبيعة لديه انبساط للربوبية التي تتسع لكل شيء، وهي في كل شيء أيضا، إن الله هو طبيعة سائر الأشياء، وبفضل الحضور الإلهي هذا، فقد أضحى ذلك ممكنا للإنسان أيضا، ألا وهو التعرف على الطبيعة الإلهية الحية..

وفي البصريات، كما في الرياضيات استند ليوناردو دافنشي على المؤلفات العربية الشهيرة لابن الهيثم الموجودة في فلورنسا، وعلى نظريته في الانعكاس الضوئي، وتجاربه على عدسة العين والعدسات المكبرة، وبالكاميرا ذات الثقب..

وفي علم طبقات الأرض، كان العالم ابن سينا قد سبقه إلى اكتشاف تشكل التربة، ولم يتوقف عند التجربة وحدها، بل اعتبرها أساسا لكل معرفة: «يجب أن ننطلق من التجربة لكي نتقصى القانون».

ورفض - كذلك القول بتفاهة العالم وعزلة الخلق الأبدية».

* «ولقد كان كلٌ من جاليلي (١٥٦٤-١٦٤٢م)، وبلانك (١٨٥٨-١٩٤٧م) على دراية بأن الكون يتجاوز - وبلا حدود - قوة إدراك نظرتنا إليه وفهمنا له.

وتحديا للعون الرائع الذي قدمه المنظار الفلكي، فقد درس جاليلي الإحاطة الذاتية بالعلم، بحيث ارتضى بتقييد الباحثين بالجانب الرياضي للحقيقة، وبالاستغناء عن كل تحديد للجوهر.

إن المتعرف عليه هو حقيقة، يقوم على المطلق الذي لا سبيل إلى إدراكه أبدا، والعلم الطبيعي هذا على دراية بحدوده.
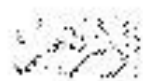
وبالاعتراف بحدود التعرف البشري هذا. وتعود فكرة (الجهل الداري) للفيلسوفين «إريوجينا»، و«كوسانوس»، على غرار جذب حدود معرفة العقل للفيلسوفين «كانت» (١٧٤٢-١٨٠٤م)، و«جوته» (١٧٤٩-١٨٣٢م)؛ وبالمعرفة حول محدودية الحقيقة، يطوق العقل للأوروبي وفي كل الأزمان اليقين: لكي يتعرف معًا إلى الوجود الحقيقي للشيء الذي ما من سبيل إلى معرفته، إلى اكتشافه، فيه، المتضمن في كل ما يتسنى معرفته...

وإن استكشاف الطبيعة لم يعد - بالنسبة للإنسان الأوروبي الموجه توحيدًا وكلية (شموليًا) منذ زمن بعيد - عقبة، سبيلا للانصراف عن الله، ولا للانحراف، وإنما وعلى الدوام طريقًا نحو ما هو مجهول، نحو الربوبية.

ومن المعروف، بما يتفق تماما مع توجيهات بلانك وأينشتاين (١٨٧٩-١٩٥٥م) قبيل وفاته بوقت قصير:

«إنه الإحساس الأعمق والأروع، الذي نحن عليه قادرون، منه وحده ينبت العلم الصحيح، ومن كان هذا الإحساس غريبًا عنه، هو الذي لا يستطيع بعد أن يعجب، وأن يفرط في خشية، فهو الذي يُعد ميتا روحيًا؛ لذا فالمعرفة أن يوجد بحق ما هو غير مكتشف، وأن يتجلى بصفته أسمى حقيقة وأسطع جمالاً؛ الشيئين اللذين لا يتسنى لنا منهما سوى علم ضبابي - وهذه المعرفة وهذا العلم، هما جوهر التدين الحق:.

* «إن الطبيعة، لدى جاليلي، ليست قابلة للتجربة، للتعرف للحساب فقط، بل هي أيضا قابلة للاستعمال، وللتسيير وللإفادة.

إن كتاب الطبيعة، الذي هو في ذات الوقت كلمة الله، ذو تعبير وانبساط للألوهية، مكتوب بحروف رياضية، وفي سائر ظواهره تتجلى الربوبية بأوضح صورها وأشدها إدراكا، وبالنظام الرياضي السائد، الذي يرى الباحث الطبيعي نفسه ملزما بقراءته».

* «ولقد قال «جوردانو برونو» (١٥٤٨-١٦٠٠م) الذي عُومل كمنشقٍ عن المسيحية وملحد والذى قضى سبع سنوات فى السجون تنفيذا لحكم محاكم التفتيش.. لقد قال:

«إننا نبحث عن الله في القانون الطبيعي الثابت غير المستقر وفي الوجدان المفعم بالخشية، ونبحث عنه في سطوع الشمس، وفي جمال الأشياء التي تنطلق من حضن مناغاة الأم لأبنائها، وفي إطلالة النجوم (طلعة) التي لا تحصى، التي تتلألأ في حاشية السماء ولا تقاس».

* «ولقد اعتبر «روجر بيكون» (١٢١١-١٢٩٤م) دراسة اللغات اليونانية والعربية والعبرية أمرًا لا مناص منه من أجل تفهم أفضل للإنجيل المغلوط، ومن أجل دلالة اللفظ وترجمات أرسطوطاليس وسائر علماء المسلمين، وأصدر رؤساء الطائفة

أمرا بنفي الملحد المزدري للسلطات المقدسة عشر سنوات من أكسفورد إلى باريس.. وصدر عليه الحكم بالسجن سنة (١٢٧٨م). ثم بالسجن المؤبد، إلى أن حرره الموت سنة (١٢٩٤م)، بعد خمس عشرة سنة قضاها في السجن».

* «أما «سيجر» - من باربانت - الذي رفع راية ابن رشد (٥٢٠-٥٩٥هـ/ ١١٢٦-١١٩٨م) في الحقيقة المزدوجة - والذي تصدى للحكم الصادر ضده بشجاعة، واستنجد بالبابا، فقد قضي الـ(١٥) سنة المتبقية من عمره في سجن البابا، ومات فيه مخنوقا...».

* «إن كبلر» (١٥٧١ ١٦٣٠م) هو الشخص الذي كان يمتلك الحرية النفسية والشجاعة للإطاحة بالعقيدة اليونانية - الأرسطية حول مسار النجوم الدائري، الذي أدى إلى إعاقة شديدة، على النحو - أي الإطاحة - الذي اقترب به الفلكيون العرب في القرن (١١)..».

* «وإنه لمن الخطأ - بكلمات الفيلسوف الشاب «كانت» (١٧٤٢ ١٨٠٤م) بناء حكم عام: أن نعتقد بأن العلم الطبيعي اعتمد، كشرط أو نتيجة محتمة، إطلاق المادة، وميكنة الحياة الإنسانية. ووداع الله من هذا العالم وداع لا لقاء بعده!. إذ على العكس، فقد كان ممكنًا فوق أرضيته حكمة دينية جديدة لحقيقة الموقف واتخاذ موقف.. من المادة تنزع به الشوائب التي ما زالت عالقة بها من قبل «توما الأكويني» (١٢٢٥-

١٢٧٤م)، وأن يرتفع بها إلى مرتبة برهان إلهي منظور، مدرك، يمكن التعرف إليه، كسبب لكل ما هو صغير وكبير لكل ما فيه حياة وما ليس فيه، ولكل القوى المؤثرة الموجودة في الطبيعة والانتظام الداخلي. وهذه الوحدة الداخلية للكون كله هي الفرضية الأصلية لكل المعرفة العلمية في الفهم الأوروبي.

* «يقول «آرثور ستانلي أربجتون» (١٨٨٢-١٩٤٦م):

«إن الفيزياء الحديثة تقودنا بالضرورة إلى الله، ولا تبعدنا عنه، ولم يكن أي مخترع للإلحاد عالمًا طبيعيًا بل كانوا جميعًا فلاسفة، أنصاف معتدلين جدًا».

* ويقول «ألبرت أينشتاين» (١٨٧٩-١٩٥٥م):

«على كل باحث طبيعي متعمق، أن يكون على مقربة من نوع ما من الشعور الديني؛ لأنه قد لا يستطيع أن يتصور بأن كل الصلات الدقيقة النادرة التي يخشاها، قد صدرت عنه بادئ الأمر، ففي الكون المبهم يتجلى فهم تأنٍّ بغير حدود، إن التصور الجاري القائل بأنني ملحد ينطوي على خطأ جسيم، من يستخلصه من نظرياتي العلمية، فقلما يكون قد أدرك غايتها».

* وعند الفيزيائي «هايزنبرج» (١٩٠١-١٩٧٦م):

«الله موجود في العالم، وفي أن [illegible] يبرهن عن ذاته في مركزية وانتظام سائر الأشياء، وكل المستجدات، كما أنه خلف كل الظواهر الصلة الملموسة، التي ينهل الإنسان من مامنها قوته،

والذي لا يمكنه الشك في حقيقتها ، هنا اكتمل التطابق بين العقيدة والمعرفة..

لقد كتب «هايزنبرج» – أيضا : أن التقسيم المزدوج ، حسب التصور الأرسطوطاليسي كان بحق خاصية شيطانية ، إنه يؤدي من خلال التكرار المتصل إلى الفوضى فقط ، غير أن الإمكانية الثالثة التي برزت إلى السطح بواسطة النظرية التكاملية الكمية ، يمكن أن تكون مثمرة ، وأن تنفذ بالتكرار في حيز العالم الحقيقي».

* «إن العلم الطبيعي الأوروبي كان ممكنا فقط على أرضية إيجاد تفسير ديني آخر للطبيعة ، وعلى المفهوم الإلهي لمغزى المادة التي لا كما يقول توما الأكويني عنها ، بأنها مصابة بكل ما يخطر على البال من شوائب ، بل هي سامقة للانبساط الإلهي المنظور ، المحسوس ، الذي تحقق وحدته وتنسجم في شتى الصور – وتتجسم «وتتجمع لتتحد انطلاقا منها – للتوحد»[27].

***

* «إنها خديعة الاعتقاد بأن في مقدور العلم معرفة كل شيء ، ونظرته للحقيقة على أنها الكل في الكل ؛ وبذلك فإن الحقيقة كلها ؛ وجميعها ، ما يتعرف إليها هو ، ويمكن صنعها بالتقنية كاملة ، هي تلك المخاوف والذعر ، وانعدام الغاية والأمل ،

(٢٧) العقيدة والمعرفة (ص ٦٠ ، ٨٦ ؛ ٨٧ ، ٧٤ ، ٢٠٨ ، ٢١١-٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٣١ ، ٢٢٥ ؛ ٢١٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٩٣ ، ٢١٩ ، ٢٣٢ ؛ ٢٣٣ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ؛ ٢٤١ ، ٢٤٠ ، ٢٠٦).

والاستسلام والعدوانية، والمعاناة، والعنف اليومي، كلها جميعا من جريرة تلك الخديعة.

إن الفكر النهائي نفسه لا يصبح آنئذ واقعا، إلا إذا تواجد في ضوء اللامتناهي، إن العلم لا يدرك دائما سوى جزء من الحقيقة، والصورة العلمية وإن كانت مصيبة حقًا، فإنها مع ذلك صورة معنوية: لا تصرف النظر فقط عن النوعيات والصلات ذات الصفة غير السببية، كالتعرف إلى الحياة والموت، البداية، أو انعدامها، أجل وعن الإلمام بالشروط المسبقة الخاصة بها.

وحيث إنه لا يقدم حول هذه الأمور دومًا إلا بعض وجوه الحقيقة الكلية بحسب موقع المُشاهد، ووفق سؤاله، للسبب الآتي فقط: لأنه كنتيجة لتنوير المجالات الخاصة دوما، فقد أبقى على فراغات عريضة تتخللها، وحتى ما قدم منها بشكل غير مباشر، دون تنوير.

لقد سلط الضوء، بحيث إن ما كان قابلاً للإدراك رياضيا للحقيقة الموضوعية، قدم عن العالم صورة واهية ضحلة، يستلزم بالضرورة فهمًا تجريبيًا، في سائر مناحي الحياة:

لقد نظر إلى العقل بمثابة الآلة الوحيدة التي يحتاج الإنسان إليها، والمناسبة له لتسديد ما يفعل ويترك، وللتغلب على المستجدات التكنولوجية الآخذة في التعقيد».

إنه الأسر في بني الفكر الثنائي القديم ؛ انشطار الإنسان في جانبيات متطرفة ، هو الذي أمد في عمر الأزمة ، أو في اشتدادها » .

« والزلزال الذي نعيشه نشأ في الأصل عن شق عصا الطاعة الذي أخذ في التزايد ضد الإله المسيحي الذي أصبح غير جدير بالاعتقاد ، كما شخص « نيتشه » (١٨٤٤ - ١٩٠٠م) ذلك ، من خلال استئصال الآخرة ؛ التي جردت من قيمها كذلك من لدن المتنورين ، والآن تحققت لعنة الثنائية من كل شكل »[٢٨] .

***

(٢٨) العقيدة والمعرفة (ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٥) .

(٩)
أصول النهوض الإسلامي

* «عندما تحررت البلاد العربية من نير الاستعمار الذي جثم فوقها قرونا.. ألفت نفسها - على اختلافها - تواجه متطلبات العصر الحديث.. وأخذت تسلك سبلاً مختلفة كي تشق طريقها إلى العالم الحديث لتفسح لنفسها مكانًا فيه. والأخذ بأسلوب حياة المستعمرين وحضارتهم الفتية، وأن يحتذوا سيرة السادة اللاحقين وحياتهم الناجحة: وطريقتهم في العيش والتفكير؛ وعاداتهم، وما حققوه من إنجازات مادية ومثل أخلاقية. وهكذا يتأوربون كالأوربيين، ويتأمركون كالأمريكيين، ويتروسون كالروسيين.

على أن ضد هذا الخطر الجديد، الذي بات يتهدد الاستقلال الداخلى بعد التحرر خارجيا، تداعت القوى على اختلاف تجربتها فى المعاناة في ماضيها مع الاستعمار وشدة اغترابها؛ وأعلنت رفضها أن تكون مجرد تقليد أعمى للمدنية الحديثة الغربية..

إن تلك «الأصول» و«الجذور» التى ينبغى على العالم العربى أن «يجدها ويتعهدها حتى يشق طريقه إلى أمام»، والتي ذكرتها في كثير من محاضراتي في المغرب العربي كله، هي:

١ - اللغة العربية.. فهي المفتاح الرئيسي إلى عالم الفكر الذاتي للعرب.

٢ - الدين.. بصفته المحور الذي يدور حوله وجودهم، في كل ما يتعلق بأمورهم، ونعني بذلك الإسلام النقي من العناصر غير الإسلامية، المنفتح على العالم، الذي لا يعارض التطور العقلي..

٣ - وعودة الوعي، والرجوع إلى الهوية الذاتية، الذي يتطلب:

التنقيب عن الماضي الفكري المدفون تحت الأنقاض تماما، واستيعاب أسباب نشوئه، واكتماله، واكتهاله، ثم تقهقره، واندثاره، والخروج بالعبر والدروس اللازمة للانطلاق للمستقبل، فالعرب انطلقوا من قبل أيضا من البداية. وكانوا آنذاك وسط حضارات تفوقهم فلم يترددوا في الأخذ عن أولئك الغرباء ما رأوه ضروريا لبقائهم، دون أن يحاكوا محاكاة عمياء، ثم واصلوا فوقه البناء بطريقتهم الخاصة، وبالوسائل التي أتاحها لهم نبوغهم المميز، وصاحب هذا تطويرهم لأساليبهم النابعة منهم، وهكذا غدوا أكفاء لخلق إبداع فكرى جديد: قيم من الدرجة الأولى، منتم إليهم.

فالتعلم من الماضي لبناء المستقبل حق مفروض.. ورفض غلو التقوقع والانغلاق.. وغلو الانفتاح المطلق بلا قيد ولا شرط، المؤدي إلى الاغتراب.. هو شرط للنجاة من الانحياز لجبهة واحدة، الأمر الذي يتهدد الحياة..

لقد أعقب المرحلة الأولى التي تلت الاستقلال، والتي

اتسمت - على جميع المستويات باتخاذها الأنماط الغربية أو الأيديولوجية الروسية قدوة لها، انتكاس المسيرة، وسرعان ما تمخض ذلك عن عدم الثقة بكل ما هو غريب دخيل، ورفضه. وبخاصة ما أتى من «الغرب»، وقد ارتبط بإحياء الإسلام والرجوع إليه.

إن الإسلام هو ولا شك أعظم ديانة على ظهر الأرض سماحة وإنصافا، نقولها بلا تحيز، ودون أن نسمح للأحكام الظالمة بأن تلطخه بالسواد، وإذا ما نحينا هذه المغالطات التاريخية الآثمة في حقه، والجهل البحت به. فإن علينا أن نتقبل هذا الشريك والصديق مع ضمان حقه في أن يكون كما هو...»[*].

***

(*) الله ليس كذلك (ص ٩٥، ٩٦، ١٠١).

- ٣ -
أسباب
انتشار الإسلام

مقدمة

لقد صدق الله العظيم، عندما قال في قرآنه الكريم: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً....﴾ (آل عمران: ١١٣)؛ ليُعلم الناس العدالة التي تكتشف الفروق والتمايزات في مواقف الآخرين، والتي لا تعمم الأحكام فتظلم المنصفين والمجتهدين، عندما تضعهم في سلة واحدة مع المغرضين والمزيفين.

فالغرب ليس كتلة واحدة صماء.. وهو لا يمكن اختزاله في «مشروع الهيمنة الإمبريالية»، والاحتلال والاستغلال، الذى ناصب الإسلام العداء منذ ظهور الإسلام، ولا يزال يناصبه العداء حتى هذه اللحظات.. والذى حاول ويحاول، طوال ذلك التاريخ، إعادة اختطاف الشرق من الإسلام وأمته وحضارته.

ورغم أن صناعة القرارات، والممارسات التى عانى منها الشرق الإسلامي، ولا يزال يعانى منها حتى الآن، هى بيد قوى الهيمنة الغربية، وتوجهاتها الفكرية والدينية، وبيد المؤسسات السياسية والاقتصادية والإعلامية والكنسية المعبرة عن هذه القوى والتوجهات. تلك التى تمسخ وتُشوه صورة الشرق الإسلامى فى عقول ووجدانات جماهير الشعوب الغربية ذاتها، لتبرر مشاريع الهيمنة الإمبريالية على الشرق فى أوساط هذه الجماهير، وصولاً إلى كسب تأييد هذه الجماهير لمقاصد الإمبريالية الغربية فى إعادة اختطاف الشرق، وحرمان أهله من حقهم الفطرى فى الحرية والاستقلال وتقرير المصير.

رغم هذه الحقيقة - التى قامت عليها الشواهد الكثيرة إلا أن العدالة والإنصاف يدعواننا إلى إبراز الوجه المشرق للغرب الحضارى .. والذى تمثل فى العلماء الغربيين، الذين عبروا عن حقيقة الإنسان الغربى، وموضوعية العلم الغربى. وأثمن ما فى الثقافة الغربية: عندما درسوا الإسلام وحضارته دراسة العلماء المجتهدين، فأنصفوه، وشهدوا له شهادات صدق، نتعلم منها نحن المسلمين .. ونقدمها للإنسان الغربى - الذى ضلله الإعلام الغوغائي: عندما شحن عقله ووجدانه «بثقافة الكراهية السوداء» للإسلام والمسلمين - قائلين لهذا الإنسان الغربى: إننا ندعوك إلى كلمة سواء .. إلى أن تقرأ شهادات هؤلاء العلماء الغربيين العدول، العلمية والموضوعية التى أنصفت الإسلام وأمته وحضارته.

وإذا كان استقصاء هذه الشهادات الغربية يحتاج إلى العديد من المجلدات: فإننا نقف - فى هذا المقام - عند شهادات نفر متميز من العلماء الغربيين الذين يمثلون عمدا من أعمدة الثقافة الغربية: وحججا فى دراسة الحضارة الغربية والإسلامية جميعا .. والذين كتبوا فى الإسلام دراسات يتعلم منها علماء الإسلام أنفسهم .. وهى دراسات حرى أن يتعلم منها الغربيون قبل المسلمين.

شهادة العلامة
سير توماس أرنولد
(١٨٦٤ - ١٩٣٠م)

يجيء في مقدمة العلماء الغربيين: العالم الإنجليزي «سير توماس أرنولد» (١٨٦٤ - ١٩٣٠م) Sir Thomas Arnoled, صاحب الكتاب الفريد الذي درس مسيرة وسيرة الإسلام في العالم، عبر التاريخ .. كتاب (الدعوة إلى الإسلام).

وعن هذا العالم الحُجة، يقول المستشرق الإنجليزي البرفيسور «الفريد جيوم Alfred Guillame» - رئيس دائرة الشرق الأدنى والأوسط لمعهد الدراسات الشرقية والأفريقية لجامعة لندن:

«إنه من أعاظم المستشرقين البريطانيين، تعلم في كمبردج، وقضى عدة سنوات (١٨٨٨ - ١٨٩٨م) في الهند أستاذًا للفلسفة في كلية عليكرة الإسلامية، وأستاذًا للفلسفة في لاهور (١٨٩٨ - ١٩٠٤م) ومساعدًا لأمين مكتبة ديوان الهند (١٩٠٤ - ١٩٠٩م). وهو أول من جلس على منبر الأستاذية في قسم الدراسات العربية في مدرسة اللغات الشرقية بلندن سنة (١٩٠٤م)، ثم اختير عميدًا لها.

ولقد ذاع صيته بكتابية «الدعوة إلى الإسلام» - لندن سنة (١٨٩٦م) - و «الخلافة - Caliphate» أكسفورد سنة (١٩٢٤م). كما كتب دراسته الإجمالية عن الإسلام بعنوان «العقيدة الإسلامية The Islamic Faith» وكتابه الفخم عن «التصوير في الإسلام - Painting in Islam». وهو صاحب فكرة كتاب «تراث الإسلام» والمشرف على تنسيقه وإخراجه.

ولقد كان مُلمّا باللغتين العربية والفارسية إلى جانب إلمامه بمعظم اللغات الأوروبية مالكا لمفاتيح عالم العصور الوسطى وعالم العصر الحديث.

ولقد خلت كتاباته من أية أغلاط، أو حتى هفوات لاحظها عليها المتخصصون من الغربيين أو المسلمين[٢٩].

وإذا كانت هذه هي مكانة «الشاهد» - سير توماس أرنولد فيكفي في الإشارة إلى مكانة شهادته كتابه «الدعوة إلى الإسلام» الذى نقدم منه شهادته للإسلام - أن يقول فيه المستشرق الإنجليزى «ر. ا. نيكلسون» (١٨٦٨ - ١٩٤٥م) (R.A. Nicholson):

---

(٢٩) ر. ا. نيكلسون: تراث الإسلام (ص١٦٨)، ترجمة: جرجيس فتح الله، طبعة بيروت سنة (١٩٧٢م). ومقدمة الطبعة الثالثة لكتاب: الدعوة إلى الإسلام (ص١٥-١٧)، ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن. د. عبدالمجيد عابدين، إسماعيل النحراوي. طبعة القاهرة سنة (١٩٧٠م).

«إنه كتاب يفوق حد الوصف من كل ناحية .. وهو مؤلف لا يمكن الاستغناء عنه، ويعد حجة ثابتة .. وهو من أوله إلى آخره، برغم طابعه التاريخي ومنهجه العلمي، إنما هو حجة أرنولد أقامها على الجور والتعصب. وإن آراءه في الجملة خليقة بأن تؤثر حتى في هؤلاء الذين قد يظنون أن هذا الكتاب مصدر خطر، عندما يقدرون بواعث الحماسة في نشر الدعوة الإسلامية ونتائجها، تاركين بصفة قاطعة مظهرًا من نشاط هذه الدعوة الإسلامية لم يحسبوا له حسابًا، كما فعل أرنولد .. إنه ليستولي علينا الدهش كيف استطاع أرنولد أن يجمع وينقد هذا القدر الهائل من المواد المتنوعة التي تتعلق بالكتب والمراجع التي استخدمها في الطبعة الأولى من كتاب «الدعوة إلى الإسلام»، وإن نظرة واحدة في المراجع التي اعتمد عليها المؤلف، تكفي لتتحقق قيمة الكتاب باعتباره مستودعًا وصورة للحقائق التي تتعلق بموضوعه .. إنه كتاب زاخر بالحياة .. وبينما نجده ينقلنا على التوالي من بلاد العرب إلى آسيا الغربية وإفريقية وإسبانيا وفارس والهند والصين والملايو، فإننا نحس من وراء سطحه الهادئ عمق الحجج المقنعة وقوتها، تلك الحجج التي تبعث فيه الحياة..»[٣٠].

(٣٠) نيكلسون: مقدمة كتاب: الدعوة إلى الإسلام (ص١٦، ١٧).

وبعد هذه الإشارات إلى مكانة «الشاهد» ومكانة «الشهادة».. نقدم شهادة «سير. توماس أرنولد» على زيف دعاوى انتشار الإسلام بالسيف والعنف والحرب والإكراه - تلك الدعاوى التى روَّج لها، ولا يزال، مشروع الهيمنة الغربية.

فيعلن، بالحقائق الموضوعية، أن انتشار الإسلام إنما حدث، بهذه الصورة المدهشة فى سرعتها وقوتها، لسببين أساسيين:

أولهما: الضعف الذاتى والمُزمن الذى أصاب النصرانية. والإفلاس الذى أصاب كنائسها المتناحرة، كأثر من آثار جناية الثقافة الهلينية الغربية على النصرانية الشرقية، وما أثمرته من الانقسامات الحادة والتناقضات العدائية فى صفوف المؤسسات الكنسية إبان مراحل الظهور والانتشار للإسلام.

وثانيهما: سماحة الإسلام .. وبساطته .. ومنطقه العقلانى .. والقوة الذاتية التى امتلكها وتميز بها هذا الدين عن غيره من الديانات.

كما يشهد «سير توماس أرنولد» - ومعه كوكبة العلماء الغربيين الذين استشهد بدراساتهم - على الحقيقة التى تمثل «مفارقة غريبة».. حقيقة انتشار النصرانية - التى هى

ديانة السلام المتصوف، والصوفية المسالمة - بالسيف والعنف والقهر والإكراه .. بينما تم انتشار الإسلام الذى هو دين ودولة .. وعقيدة وشريعة - بالسماحة، والدعوة التى تتوجه إلى العقول، وتجتذب القلوب.

يشهد العلامة «أرنولد» على هذه الحقائق الموضوعية والتاريخية .. وما لنا فى هذا المقام، إلا تقديم نصوصه الموثقة، التى نقدمها للقارئ الغربى - الظالم للإسلام .. أو الجاهل بحقيقته ليراجع موقفه من الإسلام.

كما نقدمها للقارئ المسلم، ليزداد يقينه بعظمة الإسلام .. وسُمو سماحته .. وليزداد عزمه على الدفاع عن الإسلام فى مواجهة الحملة البربرية الظالمة لهذا الدين.

ونحن نقدم هذه الشهادة - شهادة «سير توماس أرنولد» تحت هذه العناوين :

١ - حالة النصرانية إبان ظهور الإسلام.

٢ - العوامل الذاتية لتفوق الإسلام .. وسرعة انتشاره.

٣ - سماحة الإسلام.

٤ - نشر المسيحية بالعنف.

يشهد على ذلك كله العلامة «سير توماس أرنولد» فيقول :

(١)

حالة النصرانية إبان ظهور الإسلام

«لقد صادفت شريعة محمد ترحيبًا لا مثيل له في العالم .. وإن الذين يتخيلون أنها انتشرت بحد السيف إنما ينخدعون انخداعًا عظيمًا ...».

جورج سيل Sale. G (١٦٩٧ - ١٧٣٦م) مترجم القرآن الكريم إلى الإنجليزية

العوامل التي ساعدت على نشر الإسلام:

إن حالات المجتمع المسيحى نفسه قد جعلت الجهود التي تنطوى على الغيرة والحماسة الدينية فى اكتساب مسلمين جدد أشدَّ أثرًا وأعظم قيمة.

ويعد تدهور الكنيسة الإغريقية في مقدمة هذه الحالات جميعًا. وإلى جانب طغيان الدولة البيزنطية فى الشئون الزمنية. نشأ استبداد في الأمور الدينية جعل الحياة العقلية ترزح تحت عبء القرار الحاكم الذى حرَّم كل مناقشة فى شئون الأخلاق والدين. والشيء الوحيد الذى أقضَّ مضاجعهم هو المجادلات العنيفة التى أقامت حربًا عوانًا على الكنيسة اللاتينية مقرونة بكل ما فى المناقشات النظرية والكراهة العنصرية من شدة ومرارة. وتدهورت ديانة الشعب فأصبحت

تراعي المظاهر الخارجية مراعاة تقوم على كثير من الوهم والريبة.

ووجدت حماسة عبادتهم البالغة متنفسا في عبادة العذراء والقديسين والصور والمخلفات الأثرية، وانصرف عدد كبير عن كنيسة انحطت حياتها الروحية إلى الحضيض. ولما ملوا مناقشات لا نهاية لها حول مسائل مذهبية عويصة، كالانبثاق المزدوج لروح القدس، وأخرى تافهة - كاستخدام الخبز الخمير أو الفطير في القربان المقدس - تقبلوا بصدر رحب تعاليم الإسلام الواضحة المفهومة التي تقوم على الوحدانية.. وقد انتهت إلينا أخبار عن طوائف كبيرة من الناس أسلموا، ولم يكونوا بسطاء عامتهم فحسب، بل كانوا من العلماء على اختلاف طبقاتهم ومناصبهم ورحالاتهم. وأخبار عن الطريقة التي أجرى بها الأتراك أرزاقا أسخى على هؤلاء الرهبان والقساوسة الذين اعتنقوا الإسلام حتى يكونوا قدوة قد تدفع غيرهم إلى اعتناق الإسلام.

وبينما كانت «أدرنة» لا تزال العاصمة التركية (أي قبل سنة ١٤٥٣م) كان البلاط قد اكتظ بالذين أسلموا، ويقال: إنهم كانوا يؤلفون السواد الأعظم من أصحاب الجاه والسلطان هناك.

وكثيرًا ما انحاز الأمراء البيزنطيون وغيرهم إلى صفوف المسلمين، ووجدوا منهم ترحيبًا كبيرًا.

وبعد سقوط القسطنطينية أظهرت الطبقات العليا من المجتمع المسيحي من الاستعداد لاعتناق الإسلام ما يفوق بكثير استعداد جمهرة اليونان.

وفي الكنيسة الإغريقية أصبح الدين الإسلامي الملجأ الطبيعي لأفراد الكنيسة الشرقية، هؤلاء الذين أحسوا بمثل هذا الحنين بعد أن عرفوا صورة من العقيدة أنقى وأبسط...[٣١].

فساد رجال الدين المسيحي كان من أسباب اعتناق الإسلام:

وفي عهد صلاح الدين الأيوبي في مصر (٥٦٤ - ٥٨٩ هـ / ١١٦٩-١١٩٣م) تمتع المسيحيون بالسعادة إلى حد كبير، في ظل ذلك الحاكم الذي عُرف بالتسامح الديني، فقد خففت الضرائب التي كانت فرضت عليهم. وزال بعضها جملة. وملئوا الوظائف العامة كوزراء وكتاب وصيارفة.

وفي عهد خلفاء صلاح الدين نعموا بمثل هذا التسامح والرعاية، قرابة قرن من الزمان. ولم يكن هناك ما يشكون منه

(٣١) الدعوة إلى الإسلام (ص ١٨٥ - ١٨٧).

إلا ما اتصف به كهنتهم أنفسهم من الفساد والانحطاط. فقد فشت السيمونية[٣٢] بينهم، فبيعت مناصب القسيسين، الذين اتصفوا بالجهل والرذيلة، على حين حيل بين الذين طلبوا التعيين وبين هذا المنصب المقدس بعجزهم عن أداء الأموال المطلوبة في احتقار وازدراء، مع أنهم كانوا من الجديرين بشغل هذا المنصب. وكان من أثر ذلك أن أهمل تثقيف الناس روحيًا وخلقيًا إهمالاً تامًا وبلغت الحياة المسيحية درجة محزنة من الانحلال ... كما بلغ من فساد الكنيسة أنه عند وفاة يوحنا الرابع والسبعين من بطارقة اليعاقبة في سنة (١٢١٦م)، كان لابد من انتخاب خليفة له، وقام بين الجماعات المتعادية المتناحرة، التي لجت في إثارة حقوق المرشحين المتنافسين، نزاع عنيف استمر نحو عشرين سنة. إلا أنه لم يكن من سبيل إلى إصلاح ذات البين بين هذه الجماعات، فقد كان اهتمامهم طوال ذلك الوقت بما قد يترتب على ذلك من نتائج محزنة ضارة، أقل من اهتمامهم بالمحافظة على روح التحزب التي تنطوي على العناد وإثارة الشقاق.

---

(٣٢) نسبة إلى سيمون الساحر، والمراد: محاولة الارتقاء عن طريق المال إلى الرتب الروحية والكهنوتية، وبيع الأشياء الروحية بالأثمان الدنيوية.

وفي أكثر من مناسبة حاول السلطان الجالس على العرش أن يصلح بين هذه الفرق المتخاصمة ; ورفض ما عرضت عليه رشا ضخمة بلغت ثلاثة الآلاف وخمسة الآلاف ، بل عشرة الآلاف قطعة من العملة الذهبية ليغرُوه بأن يكفل لهم اختيار أحد المرشحين بالضغط وباستعمال نفوذه الرسمي ، بل لقد عرض عليهم هذا السلطان أن يتجاوز عن المطالبة بالرسوم التي اعتاد أن يؤديها البطريق الذي يفوز حديثا بالانتخاب ; لو أنهم طرحوا منازعاتهم ووصلوا إلى شيء من الاتفاق . ولكن هذه الجهود لم تحقق أي غرض من الأغراض .. وخلا في الوقت نفسه كثير من الأسقفيات . ولم يكن هناك من يَحل محل الأساقفة والقسيسين الذين ماتوا في تلك الفترة .

ومما يدل على أن تحوُّل المسيحيين إلى الإسلام لم يكن راجعا إلى الاضطهاد ، وما وقفنا عليه من الشواهد التاريخية الأصيلة ; وهو أنه في الوقت الذي شغر فيه كرسي البطرقية ، تمتع المسيحيون بالحرية التامة في إقامة شعائرهم ; وسمح لهم بإعادة بناء كنائسهم ، بل ببناء كنائس جديدة ، وتخلصوا من القيود التي حتمت عليهم أن يركبوا الحمير والبغال ; وحوكموا في محاكمهم الخاصة ، على حين أعفي الرهبان من دفع الجزية ، ومنحوا امتيازات معينة ... »[٣٣] .

(٣٣) الدعوة إلى الإسلام (ص١٢٨ ، ١٣٠) .

إن سرعة انتشار الإسلام في الأيام الأولى من الاحتلال العربي قد تكون راجعة إلى عجز ديانة - كالديانة المسيحية - وعدم صلاحيتها للبقاء، أكثر من أن تكون راجعة إلى الجهود الظاهرة التي قام بها الفاتحون لجذب الأهلين إلى الإسلام. وإن الأساس اللاهوتي لبقاء اليعقوبيين[٣٤] طائفة منفصلة، والشعائر التي جاهدوا في سبيل الاحتفاظ بها وقتا طويلا، ودفعوا ثمنا غاليا في هذا السبيل، قد اجتمعت في عقائد كانت صيغتها أشد ما تكون غموضا وإبهاما من الناحية الميتافيزيقية. ولا شك أن كثيرا من هؤلاء قد تحولوا، وقد أخذت الحيرة منهم كل مأخذ، واستولى على نفوسهم الضجر والإعياء من ذلك الجدل السقيم الذي احتدم من حولهم، إلى عقيدة تتلخص في وحدانية الله البسيطة الواضحة، ورسالة نبيه محمد، بل إننا نجد في داخل الكنيسة القبطية نفسها في عصر متأخر شواهد تنبئ عن حركة، إن لم تكن إسلامية خالصة، فقد كانت على الأقل وثيقة الصلة بها. وربما ساعد عدم وجود أي نظام كنسي مستقل، يجد طريقه لإيضاحه والتعبير عنه، على زيادة الذين دخلوا في الإسلام[٣٥].

---

(٣٤) أو اليعاقبة: فرقة مسيحية، تنسب إلى يعقوب، وهي إحدى فرق ثلاث اختلفت حول طبيعة المسيح: اليعقوبية، والملكانية، والنساطرة. واليعاقبة يقولون بالطبيعة الواحدة للمسيح، أي أنه هو الله والإنسان اتحدا.

(٣٥) الدعوة إلى الإسلام (ص٢٢٥ - ٢٢٧).

إن نظرية الحياة المسيحية التي وجدت أقصى ما يمكن إدراكه والتعبير عنه في التقشف في أكبر صورة. قد استطاعت أن تظهر بعض الميل نحو الآداب الإسلامية الأكثر إنسانية .. ولكثرة عدد الأقباط الذين كانوا يعتنقون الإسلام من حين إلى حين أخذ أتباع النبي (محمد) يعتبرونهم أشد ميلا لقبول الدين الإسلامي من أية طائفة أخرى.

والظاهر أن الأمية كانت متفشية في السواد الأعظم من رجال الدين المسيحي: فإن معظمهم لم يعرف كيف يكتب برغم إلمامه الضعيف بالقراءة، وكانوا على جانب كبير من الجهل بواجبات مهنتهم المقدسة إلى حد أنهم لم يستطيعوا حتى إعادة صيغة الغفران عن ظهر قلب. وعلى الرغم من أنه كان من واجبهم أن يلقوا القُدّاس وسائر الخدمات باللغة اللاتينية، كان هناك عدد قليل جدًا يستطيع أن يدرك شيئًا منها. كما كانوا على جهل بأية لغة عدا لغتهم الأصلية؛ وكانوا لا يعرفون عن حقائق دينهم إلا معارف غامضة أخذوها بالتواتر[٣٦].

«إن اليعاقبة، الذين كانوا يكوّنون السواد الأعظم من السكان المسيحيين، قد عُوملوا معاملة مجحفة من أتباع المذهب الأرثوذكسي التابعين للبلاط (البيزنطي) الذين

(٣٦) الدعوة إلى الإسلام (ص ٢١١ - ٢١٢).

ألقوا في قلوبهم بذور السخط والحنق الذين لم ينسهما أعقابهم حتى اليوم .. كان بعضهم يعذب ثم يلقى بهم في اليم. وتبع كثير منهم بطريقهم إلى المنفى لينجوا من أيدى مضطهديهم. وأخفى عدد كبير منهم عقائدهم الحقيقية، وتظاهروا بقبول قرارات مجمع خلقدونية[٣٧]. ولقد قيل : إن «جستنيان» (٤٨٣ - ٥٦٥م) أمر بقتل مائتى ألف من القبط في مدينة الإسكندرية، وأن اضطهادات خلفائه قد حملت كثيرين على الالتجاء إلى الصحراء.

وقد جلب الفتح الإسلامي إلى هؤلاء القبط .. حياة تقوم على الحرية الدينية التى لم ينعموا بها من قبل ذلك بقرن من الزمان. ويظهر حالة القبط في الأيام الأولى من حكم المسلمين كانت معتدلة نوعًا ما. وليس هناك شاهد من الشواهد على أن ارتدادهم عن دينهم القديم ودخولهم في الإسلام على نطاق واسع كان راجعًا إلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم الحديثين. بل لقد تحول كثير من هؤلاء القبط إلى الإسلام قبل أن يتم الفتح. حين كانت الإسكندرية، حاضرة مصر وقتئذ، لا تزال تقاوم الفاتحين، وسار كثير من القبط على نهج إخوانهم بعد ذلك بسنين قليلة»[٣٨]

(٣٧) المجمع المسكوني الرابع، سنة (٤٥١م)، وهو الذى أقر عقيدة الطبيعتين للمسيح. وهي العقيدة الكاثوليكية.

(٣٨) الدعوة إلى الإسلام (ص١٢٣، ١٢٤)
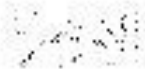
ويزعم كثير من علماء اللاهوت المسيحيين أن حالة الكنيسة الشرقية التي تدهورت في ذلك الوقت - من الناحية الخلقية والروحية - لا بد وأن تكون قد دفعت كثيرين إلى أن يلتمسوا جوا روحيا أسلم وأصح في ذلك الدين الإسلامي الذي جاءهم وهو في أشد ما تكون الحماسة الغضة قوة وعنفا.

وعلى سبيل المثال، يتساءل «ملمان Dean Milman»:

«ماذا كانت حال العالم المسيحي في الأقاليم التي تعرضت لأولى غزوات الإسلام؟ كانت الأحزاب الدينية يناوئ بعضها بعضا، ورجال الكنيسة يتنازعون فيما بينهم على أشد مسائل الدين إبهاما وأكثرهما غموضا، فيما يتعلق بما وراء الطبيعة في العقيدة الدينية. والأرثوذكس والنساطرة وأتباع أوطيخوس[39] واليعاقبة يضطهد بعضهم بعضا، وقد استحكمت بينهم العداوة التي لا تفتر ولا تنقطع، ولا نكون مبالغين في الحكم على مساوئ الجدل الديني إذا افترضنا أن كثيرين ربما فرحوا بوقوع خصومهم في إسار الكفار (يقصد المسلمين)؛ إذ كان هذا أفضل عندهم من أن يجمع بينهم

---

(39) أوطيخوس Eutychés (388 - 454م) راهب يوناني عاش في القسطنطينية، وقال بوحدة الطبيعة في المسيح (مونوفيزية) فحرمه المجمع الخلقيدوني سنة (451م).
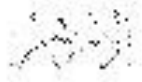
وغرقت بفعل الانقسامات الداخلية، وتزعزعت قواعدها الأساسية. واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الرِّيب، لم تعد المسيحية بعد ذلك قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذي بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة، وقدم مزايا مادية جليلة إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التي لاتقبل الجدل. وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى في أحضان نبي بلاد العرب.

أضف إلى هذا قول «تايلور Canon Taylor» (١٧٥٣ - ١٨٢٤م)[٤٠]: «إنه من اليسير أن ندرك لماذا انتشر (هذا الدين الجديد) بهذه السرعة في إفريقيا وآسيا. كان أئمة اللاهوت في إفريقيا والشام قد استبدلوا بديانة المسيح عقائد ميتافيزيقية عويصة. ذلك أنهم حاولوا أن يحاربوا ما ساد هذا العصر من فساد بتوضيح فضل العزوبة في السماء وسمو البكورية إلى مرتبة الملائكة، فكان اعتزال العالم هو الطريق إلى القداسة. والقذارة صفة لطهارة الرهبنة، وكان الناس في الواقع مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة، كما كانت الطبقات العليا محنثة يشيع فيها

(٤٠) جون تايلور (١٧٥٣-١٨٢٤م) فيلسوف سياسي أمريكي. يعرف بـ «جون تايلور الكارولينى». له مؤلفات مهمة في الحقوق الخاصة بالولايات.

الفساد، والطبقات الوسطى مُرهقة بالضرائب. ولم يكن للعبيد أمل في حاضرهم ولا مستقبلهم. فأزال الإسلام، بعون من الله، هذه المجموعة من الفساد والخرافات. لقد كان ثورة على المُجادلة الجوفاء في العقيدة، وحُجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس التقوى. ولقد بين أصول الدين التي تقول بوحدانية الله وعظمته، كما بين أن الله رحيم عادل يدعو الناس إلى الامتثال لأمره والإيمان به وتفويض الأمر إليه. وأعلن أن المرء مسئول، وأن هناك حياة آخرة ويومًا للحساب، وأعد للأشرار عقابًا أليمًا. وفرض الصلاة والزكاة والصوم، وفعل الخير، ونبذ الفضائل الكاذبة والدجل الديني والترهات والنزعات الأخلاقية الضالة، وسفسطة المنازعين في الدين، وأحل الشجاعة محل الرهبنة، ومنح العبيد رجاء، والإنسانية إخاء، ووهب الناس إدراكًا للحقائق الأساسية، التي تقوم عليها الطبيعة البشرية».

«أضف إلى ذلك، أن الإسلام قد نظر إليه بعض الباحثين على أنه رد فعل ضد النظام الكنسي البيزنطي، الذي كان يمثل الإمبراطور ورجال بلاطه صورة من الجلالة الإلهية في الأعالي، وينظر إلى الإمبراطور نفسه لا على أنه الحاكم الدنيوي الأعظم فحسب بل على أنه الكاهن الأكبر كذلك....».

«أضف إلى ذلك أيضا أنه كان لتعميم استعمال اللغة العربية في كافة البلاد الخاضعة للخلافة الإسلامية، وبخاصة المدن والمراكز الكبرى الآهلة بالسكان. كما كان كذلك للتماثل الذى تم تدريجيا فى الأخلاق والعادات، والذى أدى فى خلال ما يقرب من قرنين إلى اندماج الأجناس المغلوبة على اختلافها اندماجا قويا فى الحياة القومية التى كان يحياها العنصر العربي الحاكم - كان لهذا كله من غير شك صدى في الحياة الدينية والفكرية لدى كثيرين من أفراد الديانات التى دخلت فى حماية العرب الفاتحين. ومن المحتمل جدًا أن تكون الحركة الفكرية التى أثرت فى العقيدة الإسلامية تأثيرا بالغا، ابتداء من القرن الثانى حتى القرن الخامس للهجرة، قد أثرت في المفكرين المسيحيين وصرفتهم عن ديانة كانت روح عقيدتها السائدة تلوح فى ذلك الوقت إنها عقيدة مستحيلة من الناحية العملية...»[41].

«لقد اتسعت الكنيسة المسيحية (فى شمال إفريقيا) قبل الإسلام.. ومع ذلك فلقد تلقت من اضطهاد الوندال[42]

---

(٤١) الدعوة إلى الإسلام (ص٨٩ - ٩٢).

(٤٢) قبيلة جرمانية قديمة، استوطنت - مع قبائل جرمانية أخرى - وادى أودر ابتداء من حوالى القرن الخامس قبل الميلاد.

ضربة لم تفق منها قط. فقد ظل الوندال الآريون، قرابة قرن من الزمان، يضطهدون الأرثوذكس اضطهادًا عنيفًا لا هوادة فيه. فشردوا أساقفتهم، وحرّموا الجهر بإقامة شعائرهم الدينية، وقسوا في تعذيب هؤلاء الذين أبوا أن يدخلوا في ديانة من فتحوا بلادهم... »[٤٣].

«ولكننا لم نسمع (في ظل الإسلام) عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي. ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها «فرديناند - Ferdinand» (١٤٥٢ - ١٥١٧م) و «إيزابلا Isabella» (١٤٥١ - ١٥٠٤م) دين الإسلام من إسبانيا، أو التي جعل بها «لويس الرابع عشر Louis KIV» (١٦٣٨-١٧١٥م) المذهب البروتستانتي مذهبًا يعاقب عليه متبعوه في فرنسا، أو بتلك السهولة التي ظل بها اليهود مُبعدين من إنجلترا مدة خمسين وثلاثمائة سنة».

لقد كانت الكنائس الشرقية في آسيا قد انعزلت انعزالًا تامًا عن سائر العالم المسيحي الذي لم يوجد في جميع

(٤٣) الدعوة إلى الإسلام (ص ١٤٥ - ١٤٦).

أنحائه أحد يقف في جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين. ولهذا فإن مجرد بقاء هذه الكنائس حتى الآن ليحمل في طياته الدليل القوى على ما قامت عليه سياسة الحكومات الإسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم.

إنه يجب ألا نفرض أن حالة القبط كانت على الدوام حالة طائفة مضطهدة، بل على العكس. كانت هناك فترات كانوا يترقون فيها إلى المناصب التي يتمتع أصحابها بالشهرة والغنى في الدولة. فملأوا مناصب الوزراء والكُتّاب في دواوين الحكومة، وحددوا قيمة الضرائب التي تُجْبى على الأرض التي تعطى على سبيل الالتزام[٤٤]، وجمعوا ثروة ضخمة في بعض الحالات. ولقد أمدنا تاريخ كنيستهم بكثير من الأمثلة عن رجال الكنيسة الذين تمتعوا بعطف الأمراء الذين حكموا بلادهم، ونعم القبط في عهدهم بأقصى درجات الطمأنينة.

صحيح أن بعض الخلفاء قد قام بمحاولات غير مجدية لإقصائهم عن الوظائف العامة. فأصدر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ / ٧٥٤-٧٧٥م)، والمتوكل (٢٣٢ ٢٤٧ هـ

---

(٤٤) نظام في استغلال الأرض الزراعية، تطرح فيه الدولة القرى والأرض في المزاد على من يتقبل الالتزام بخراجها. فيدفع الملتزم ضمان هذا الأداء. ثم يقوم بالإشراف على زراعة الفلاحين والأقنان لها لقاء ما يتعيشون به. محصلا الفوائض بين ما يدفعه للدولة وما يستغله من الأرض لنفسه.

/٨٤٧-٨٦١م)، والمقتدر (٢٩٥-٣٢٠ هـ /٩٠٨-٩٣٢م)، والآمر (٤٩٤-٥٢٤هـ / ١١٠١ ١١٣٠م) - وهو أحد الخلفاء الفاطميين في مصر - مراسيم بهذا الصدد، وصدرت مثل هذه المراسيم في عهد سلاطين المماليك في القرن الرابع عشر الميلادى، ولكن مجرد تجديد هذه المراسيم الخاصة بإقصاء الذميين من الوظائف الحكومية دليل على أن مثل هذه الأساليب التي تنطوى على التعصب لم تكن توضع موضع التنفيذ دائما. والحق أنه يمكن أن تكون هذه المراسيم راجعة بوجه عام إما إلى سخط شائع أثاره السلوك الخشن المتعجرف الذى يسلكه الموظفون المسيحيون، أو إلى تعصب شديد منهم حمل الحكومة على القيام بأعمال من التعسف تتنافى مع الروح العامة التى ظهر بها الحكم الإسلامى، ولكن مصير هذه الأعمال التعسفية قد آل إلى الزوال في أسرع وقت .. إن هذه المراسيم لم تكن إلى حد كبير أثرا لشعور ديني بحت .. بقدر ما كانت أثرا للظروف السياسية التى سادت هذا العصر..

ويمكن أن نرجع كثيرا من اضطهادات المسيحيين في البلاد الإسلامية إما إلى الشك في ولائهم، الذى كانت تثيره دسائس المسيحيين الغرباء وأعداء الإسلام وتدخلهم في شئونهم، أو إلى الشعور السيئ الذى أثاره المسلك

/ ٧٥٤-٧٧٥م)، والمهدى (١٥٨-١٦٩هـ / ٧٧٥-٧٨٥م)، والمأمون (١٩٨-٢١٨هـ / ٨١٣-٨٣٣م)، والمتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ / ٨٤٧-٨٦١م)، والمقتدر (٢٩٥-٣٢٠هـ / ٩٠٨-٩٣٢م)، وإلى كثير من خلفائهم. كما تعرضوا أيضا لبغض كثير من المسلمين باستخدامهم عيونا للدولة العباسية ومطاردة أشياع البيت الأموى الذى أقصي عن الحكم. وفي عصر متأخر اتهم المسيحيون في زمن الحروب الصليبية باتصالهم بالصليبيين اتصالا ينطوى على الخيانة، فجلبوا على أنفسهم قيودا شديدة الحرج، ليس من العدل أن نصفها بأنها اضطهاد دينى.

يقول السمعاني[٤٦] (٥٠٦-٥٦٢هـ / ١١١٣-١١٦٧م) - (ج١) القسم الأول (ص٩٨، ١٠٦) - حين يتحدث عن الأسباب التى أدت إلى اضطهاد المسيحيين في ظل الحكم الإسلامي:

«كثيرا ما أثارت المنازعات المتبادلة بين المسيحيين أنفسهم، وتصريحات رجال الدين وكبراء قادتهم، وسلطة أقطابهم العاتية عاصفة من الاضطهاد، وخاصة المجادلات بين الأطباء والكتاب بصدد السيطرة المطلقة على أمتهم».

وفي خلال الحروب الصليبية، طالما وقع مسيحيو الشرق

---

(٤٦) أبو سعيد، عبدالكريم بن محمد التميمي، مؤرخ ورحالة، ومن حفاظ الحديث، له آثار مهمة في التاريخ والأنساب، وكتابه (تاريخ مرو) يزيد على عشرين جزءا.

ولا يجوز أن نقف عند ألوان القسوة والعنف اللذين ارْتكبا في أية مناسبة .. والتي إذا نظرنا إليها عن قرب لن نتردد في معرفة أن أسبابها كانت سياسية محضة، أو راجعة إلى الأهواء البشرية، أو إلى المزاج المسيطر على الحاكم أو في الشعوب. إن الفعل الديني لم يلجأ إلى هذه الوسائل إلا من حيث هي حجة ولكنه في الواقع لا يدخل في نطاقها».

ولقد عرض «ماري بن سليمان»[٤٨] تعليلاً لحالات الارتداد عن النصرانية إلى الإسلام - حول نهاية القرن العاشر بقوله: «وأسلم خلق كثير. وكان أصل ذلك تجوُّز الناس في أديانهم: وقبح سيرة الكهنة في المذابح والبيع وبيوت المقدس»، «ولم يتعرض أحد لمعظم كنائسهم وأديارهم إلا في المدن الكبيرة: حيث تحول بعضها إلى مساجد، وهو تصرف كان من العسير أن يُعترض عليه نظرًا لتزايد عدد المسلمين الهائل وما كان يقابله من تناقص في المجتمع المسيحي[٤٩].

---

(٤٨) ماري بن سليمان (منتصف القرن الثاني عشر الميلادي) مؤلف نسطوري جمع علوم النساطرة وتاريخهم في كتابه (المجدل للاستبصار والجدل).

(٤٩) الدعوة إلى الإسلام (ص٨٣، ٩٤ - ٩٨، ٩٩، ١٢٨، ٤٦٢).

(٢)
العوامل الذاتية
لتفوق الإسلام وسرعة انتشاره

لقد باشر محمد سلطة زمنية كالتى كان يمكن أن يباشرها أى زعيم مستقل، مع فارق واحد هو أن الرباط الديني بين المسلمين كان يقوم مقام رابطة الدم. وعلى هذه الصورة أصبح الإسلام، ولو من الوجهة النظرية على الأقل، كما سن دائمًا، نظامًا سياسيا بقدر ما هو نظام دينى.

كانت رغبة محمد ترمي إلى تأسيس دين جديد. وقد نجح في هذا السبيل، ولكنه في الوقت نفسه أقام نظاما سياسيا له صفة جديدة متميزة تميزا تامًا.

وكان دخول مبدأ جديد من الوحدة الاجتماعية في ظل الأخوة الإسلامية في المجتمع العربى قد بدأ منذ حين في إضعاف القوة الرابطة للفكرة القبلية القديمة. تلك الفكرة التي أقامت بناء المجتمع العربى على أساس قرابة الدم. وكان إسلام الفرد ودخوله في المجتمع الجديد هدمًا لأهم قوانين الحياة العربية الأساسية، كما كانت كثرة دخول العرب في الإسلام من العوامل القوية التى أدت إلى تفكيك النظام القبلي وتركه ضعيفًا أمام حياة قومية شديدة التعصب قوية التماسك، كتلك الحياة التى صار إليها المسلمون.

إن دخول الإسلام في المجتمع العربي لم يدل على مجرد القضاء على قليل من عادات بربرية وحشية فحسب، وإنما كان انقلابًا كاملاً لمثل الحياة التي كانت من قبل.

كذلك نجد أن أداء الصلوات الخمس كل يوم على جانب عظيم من التأثير، سواء في جذب الناس أو الاحتفاظ بالمسلمين منهم. وقد أحسن «مونتسكيو» (١٦٨٩ - ١٧٥٥)[٥٠] في قوله: «إن المرء لأشد ارتباطا بالدين الحافل بكثير من الشعائر، منه بأي دين آخر أقل منه احتفالا بالشعائر؛ وذلك لأن المرء شديد التعلق بالأمور التي تسيطر دائما على تفكيره».

إن دين المسلم يتمثل دائما في مُخيلته، وفي الصلوات اليومية، يتجلى هذا الدين في طريقة نُسكية خاشعة مؤثرة، لا تستطيع أن تترك العابد والمشاهد كليهما غير متأثرين.

يتحدث سعيد بن الحسن - أحد يهود الإسكندرية، الذي اعتنق الإسلام في سنة (١٢٣٨م) - عن مشهد صلاة الجمعة في مسجد باعتباره عاملاً حاسمًا في تحوله إلى الإسلام. في

---

(٥٠) كاتب وفيلسوف فرنسي، يعد مؤلفه (روح القوانين) من معالم النهضة الأوروبية، بسط فيه الحديث عن أشكال الحكومة، والفصل بين السلطات، والديمقراطية النيابية.

خلال مرض شديد قد انتابه، رأى في المنام أن صوتا يأمره بأن يجهر بالإسلام: «وعندما دخلت المسجد (ويستمر حديثه إلى أن يقول): ورأيت المسلمين يقفون صفوفا كأنهم الملائكة، سمعت هاتفا يقول: هذه هي الجماعة التي أخبر الأنبياء - صلوات الله عليهم - بقدومها. ولما ظهر الخطيب مرتديا عباءته السوداء استولى على شعور عميق من الرهبة.. ولما ختم خطبته بالكلمات: إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون. ولما بدأت الصلاة أحسست بقوة تدفعني إلى النهوض، لأن صفوف المسلمين بدت أمامي كأنها صفوف الملائكة. الذين يتجلى الله القدير في سجداتهم. ثم سمعت هاتفا يهتف بي: إذا كان الله قد تحدث مرتين إلى بني إسرائيل في كل العصور. فإنه يتحدث إلى هذه الجماعة في كل وقت من أوقات الصلاة. وأيقنت في نفسي أني خلقت لأكون مسلمًا».

أما «رينان — إرنست» (١٨٢٣-١٨٩٢م)[٥١] فإنه يقول: «ماد خلت مسجدا قط، دون أن تهزني عاطفة حادة، وبعبارة أخرى: دون أن يصيبني أسف محقق على أنني لم أكن مسلما».

(٥١) مؤرخ وناقد ومستشرق فرنسي، كتب عن نشأة المسيحية. وله كتاب (ابن رشد والرشدية). وهو من الذين نزعوا إلى تقسيم البشر تقسيما عنصريا حسب السلالات.

ومن كلمات أسقف مسيحي مشهور: ما من فرد يتصل بالمسلمين لأول مرة إلا أخذ بمظهر دينهم هذا. وحيثما يمكن أن توجد، في الطريق العامة، أو في محطة السكة الحديدية، أو في الحقل، فإن من أكثر الأشياء شيوعا أن ترى الرجل منهم، يترك في اللحظة التي يقوم فيها بأداء أعماله أيا كانت، بدون أدنى تأثر بالرياء أو الظهور، وفي سكينة وتواضع، لكي يؤدي صلواته في أوقاتها المحددة. وأكثر من ذلك، أنه ما من فرد رأى يوما ساحة الجامع الكبير يوم الجمعة الأخيرة من شهر رمضان، وهي غاصة بما قد يربو على (١٥,٠٠٠) مصل، وكلهم جميعا منهمكون في صلاتهم، مظهرون أعمق آيات الإجلال والخشوع في كل إشارة يبدونها، إلا تأثر تأثرا عميقا بهذا المشهد، أو أخذ فكرة عابرة عن تلك القوة التي ينطوي مثل هذا النظام تحت لوائها، على حين نجد النظام الدقيق الذي يتجلى في دعوة الناس اليومية إلى الصلاة، عندما يؤذن الداعي في وقت السحر، قبل أن يتنفس الصبح، أو بين ضوضاء ساعات العمل وضجيجها، أو عندما يرخي الليل سُدوله كذلك، مُفعما بتلك الرسالة ذاتها.

ولا حاجة إلى القول بأن صيام شهر رمضان جزء من دليل ثابت يدحض النظرية القائلة بأن الإسلام نظام ديني يجذب الناس عن طريق مراودتهم في ملذاتهم الشخصية، وكما

قال : كارليل، (١٧٩٠-١٨٤٣م)[٥٢]: إن دين محمد ليس بالدين السهل، فإنه بما فيه من صوم قاسٍ، وطهارة، وصيغ معقدة صارمة، وصلوات خمس كل يوم، وإمساك عن شرب الخمر، لم يفلح في أن يكون دينا سهلا..»[٥٣].

.. ويرجع انتشار الإسلام في تلك الرقعة الفسيحة من الأرض إلى أسباب شتى: اجتماعية وسياسية ودينية، على أن هناك عاملاً من أقوى العوامل الفعالة التي أدت إلى هذه النتيجة العظيمة، تلك هي الأعمال المطردة التي قام بها دعاة من المسلمين وقفوا حياتهم على الدعوة إلى الإسلام، متخذين من هدى الرسول مثلاً أعلى وقدوة صالحة.

لقد حمل الإسلام، منذ البداية، طابع الدين الذي يقوم على الدعوة، ويسعى لجذب قلوب الناس لتحويلهم إليه. وحثهم على الدخول في زمرة المؤمنين ... وكما كانت الحال في مبدأ الأمر كذلك ظلت على هذا النحو إلى اليوم.

ولم يكن نشر الإسلام من عمل الرجال وحدهم، بل لقد قامت النساء المسلمات أيضا بنصيبهن في هذه المهمة

(٥٢) مصلح ومفكر إنجليزي حر. له كتابه المشهور (العظماء مائة أولهم محمد).

(٥٣) الدعوة إلى الإسلام (ص٥٢، ٥٩، ٦١، ٤٥٩، ٤٦٠، ٥٥٨، ٥٥٩).

الدينية .. وقد أنشأ دعاة السنوسية[٥٤] الذين قدموا لنشر دعوتهم بين التوبو[٥٥]، شمال تشاد، مدارس للبنات، واستغلوا ما كانت تحدثه النساء من نفوذ قوى بين القبائل (كما كان لهن هذا النفوذ بين جيرانهم من البربر)، فبذلوا جهودهم لجذبهن إلى صفوف الإسلام.

إنه يجب ألا نلتمس الأدلة على روح الدعوة الإسلامية في قسوة المضطهد، أو عسف المتعصب، ولا حتى في مآثر المحارب المسلم - ذلك البطل الأسطوري الذي حمل السيف في إحدى يديه، وحمل القرآن في اليد الأخرى وإنما نلتمسها في تلك الأعمال الوديعة الهادئة التي قام بها الدعاة وأصحاب المهن الذين حملوا عقيدتهم في كل صقع من الأرض، على أن هؤلاء الدعاة لم يلجأوا إلى اتخاذ مثل هذه الأساليب السلمية في نشر هذا الدين عن طريق الدعوة والإقناع، بخلاف ما زعم بعضهم، إلا حينما جعلت الظروف القوة والعنف أمرا مستحيلا، يتنافى مع الأساليب السياسية، فقد جاء القرآن مشددا في الحض على هذه الطرق السلمية، في غير آية منه، مثال ذلك :

---

(٥٤) طريقة صوفية مجددة، تعد من حركات اليقظة الإسلامية الحديثة، تنسب إلى مؤسسها محمد بن علي السنوسي الإدريسي (١٢٠١-١٢٧٥هـ ١٧٨٧-١٨٥٩م).

(٥٥) من القبائل الأفريقية.

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾ (المزمل : ١٠-١١).

﴿ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ﴾ (الجن : ٢٣).

﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (الجاثية : ١٤).

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾

(النحل : ٣٥).

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (النحل : ٨٢).

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت : ٤٦).

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ (الشورى : ٤٨).

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس : ٩٩).

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ: ٢٨).

ولم تكن هذه التعاليم مقصورة على السور المكية، وإنما وردت أيضاً بكثرة في الآيات المدنية، كقوله تعالى:

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ (التغابن: ١٢).

﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ (النور: ٥٤).

﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ (الحج: ٤٩).

﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (المائدة: ١٣).

وإذا كان المسلمون قد بلغوا هذه الحماسة في نشر الدعوة.. فلنسرد الآن بعض العوامل التي ساعدت على نجاحهم: في مقدمة هذه الأسباب: بساطة العقيدة الإسلامية،

لا إله إلا الله، محمد رسول الله، وكل ما يُطلب من الذى يدخل في الإسلام، قبول هاتين الشهادتين .. إن هذه العقيدة البسيطة لا تتطلب تجربة كبيرة للإيمان، ولا تثير في العادة مصاعب عقلية خاصة .. ولما كانت خالية من المخارج والحيل النظرية اللاهوتية، كان من الممكن أن يشرحها أى فرد، حتى أقل الناس خبرة بالعبارات الدينية النظرية.

ولا يستطيع أى فرد أن يوضح الطابع العقلى للعقيدة الإسلامية، وما جنته من هذا الطابع من الفائدة في نشر الدعوة، توضيحا يبعث على الإعجاب، بأكثر مما وضحه البروفيسور «مونتيه» (١٨٥٦-١٩٢٧م)[٥٦] في العبارات التالية:

«الإسلام في جوهره دين عقلي، بأوسع معانى هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية، فإن تعريف الأسلوب العقلي (Rationalism) بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس من المبادئ المستمدة من العقل والمنطق، ينطبق على الإسلام تمام الانطباق. والحق أن محمدا، الذى كان متحمسا لدينه، كما كان كذلك يمتلك غيرة الإيمان، ونار

(٥٦) إدوارد مونتيه. مستشرق فرنسي، ترجم القرآن إلى الفرنسية. ومن مؤلفاته (حاضر الإسلام ومستقبله).

الاقتناع. تلك الصفة القيمة التي بثها كثيرًا جدًا في أتباعه قد عرض حركته الإصلاحية على أنها وحي وإلهام: على أن هذا النوع من الوحي ليس إلا صورة من العرض والتفسير، وإن لدينه كل العلامات التي تدل على أنه مجموعة من العقائد قامت على أساس المنطق والعقل. وتتلخص العقيدة الإسلامية، من وجهة نظر المؤمنين، في الاعتقاد بوحدانية الله ورسالة نبيه. أما من وجهة نظرنا نحن الذين نحلل عقائده تحليلا لا روح فيه، فنعتقد في الله وفي الحياة الآخرة.

وهذان المبدآن هما أقل ما ينبغي للاعتقاد الديني، وهما أمران يستقران في نفس الرجل المتدين على أساس ثابت من العقل والمنطق، وتلخصان كل تعاليم العقيدة التي جاء بها القرآن. وإن بساطة هذه التعاليم ووضوحها لهي على وجه التحقيق من أظهر القوى الفعالة في الدين وفي نشاط الدعوة إلى الإسلام.. لقد حفظ القرآن منزلته من غير أن يطرأ عليه تغيير أو تبديل، باعتباره النقطة الأساسية التي بدأت منها تعاليم هذه العقيدة، وقد جهر القرآن دائمًا بمبدأ الوحدانية، في عظمة وجلال وصفاء لا يعتريه التحول، ومن العسير أن تجد في غير الإسلام ما يفوق تلك المزايا. وإن هذا الإخلاص كمبدأ الدين الأساسي، والبساطة الجوهرية في الصورة التي

يُصاغ فيها هذا الدين، والدليل الذى كسبه هذا الدين من اقتناع الدعاة الذين يقومون بنشره اقتناعًا يلتهب حماسة وغيرة، إن هذا كله يكون الأسباب الكثيرة التى تفسر لنا نجاح جهود دعاة المسلمين. وكان من المتوقع لعقيدة محددة كل التحديد، خالية كل الخلو من جميع التعقيدات الفلسفية، ثم هى تبعا لذلك فى متناول إدراك الشخص العادى، أن تمتلك. وإنها لتمتلك فعلا. قوة عجيبة، لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس....».

«وقد أكد مراتشي – Marracci» (١٦١٢-١٧٠٠م)(٥٧) هذا القول، فى القرن السابع عشر، بقوله: «لو قارن كافر بين أسرار الحالة الطبيعية البسيطة التى فاقت طاقة الذكاء البشرى، أو التى هى، على الأقل، من الصعوبة بمكان، إن لم تكن مستحيلة (العقيدة المسيحية) وبين عقيدة القرآن، لانصرف عن الأولى فى الحال. وأسرع إلى الثانية فى ترحيب وقبول...».

«وإذا قبل الذى يدخل فى الإسلام هذه العقيدة البسيطة وتعلمها، لم يكن بد عندئذ من أن يتعلم فرائض الدين الخمس:

---

(٥٧) الأب مراتشي، مستشرق إيطالى، من رجال اللاهوت، نشر القرآن متنا وترجمه: بالإيطالية. وله (دراسة عن الإسلام)، كما أسهم فى ترجمة العهدين القديم والجديد.

(١) النطق بالشهادتين.

(٢) وإقام الصلوات الخمس في أوقاتها.

(٣) وإيتاء الزكاة.

(٤) وصوم رمضان.

(٥) والحج إلى مكة.

وطالما اعترض بعض الناس على أداء هذا الفرض الأخير باعتباره بقية غريبة من بقايا الوثنية ظلت من جملة تعاليم النبي التي تدعو إلى الوحدانية. ولكن ينبغي ألا يعزب عن الأذهان، أن الحج قد اقترن بإبراهيم، فهو إعادة دين إبراهيم. ولكن، فوق ذلك كله - وهنا تكون أهميته العليا في تاريخ نشر الدعوة في الإسلام - ينظم الحج اجتماع المؤمنين في كل سنة. على اختلاف شعوبهم ولغاتهم، من كافة أنحاء العالم، للصلاة في ذلك المكان المقدس: الذي يولون وجوههم شطره في كل ساعة من ساعات عبادتهم الخاصة في أوطانهم النائية. ولم تستطع أية محاولة يقوم بها عباقرة أي دين أن تتصور وسيلة أحسن من هذه الوسيلة تطبع في عقول المخلصين معنى حياتهم المشتركة: وأخوتهم التي ارتبطت بروابط الدين، وفي ذلك المكان، حيث نجد عملاً سامياً من أعمال العبادة المشتركة. نرى زنجي ساحل أفريقيا الغربي

يلتقي بالصيني من أقصى الشرق، ويتعرف التركي الرقيق المهذب على أخية المسلم من أهل الجزائر المتوحشين الذين يسكنون أبعد أطراف بحر الملايو. وفي هذا الوقت نفسه تتطلع قلوب المؤمنين في كافة أنحاء العالم الإسلامي، في عطف وحنين، إلى إخوانهم الأسعد حظا منهم، الذين تجمعوا في المدينة المقدسة، فيحتفلون في أوطانهم بعيد الأضحى - العيد الكبير - وإن زيارتهم المدينة المقدسة قد أصبحت في نظر كثير من المسلمين التجربة التى حثتهم على الجهاد في سبيل الله ولقد قامت طبقة الحاجي - الحجاج - بنصيب فعّال في أعمال نشر الدعوة الإسلامية.

وإلى جانب نظام الحج، نجد إيتاء الزكاة فرضا يذكر المسلم دائما بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات: ١٠) وهى نظرية دينية تتحقق على صورة رائعة تبعث على الدهش في المجتمع الإسلامي، وقلما تعجز عن أن تتجلى في أعمال الشفقة إزاء المسلم الجديد.. ومهما يكن جنسه ولونه وأسلافه، فإنه يُقبل في زمرة المؤمنين: ويتبوأ مكانه على قدم المساواة مع أقرانه المسلمين».

«لقد روعى في تأليف هيئة الكنيسة المسيحية، منذ بدء تاريخها، نشر التعاليم المسيحية بين الكفار. وكان

مبشروها . في أغلب الأحيان . قساوسة ورهبانا . يعينون لهذا الغرض بانتظام، أما في الإسلام . فإن عدم وجود أي لون من ألوان الكهنوت أو أية هيئة دينية منظمة أيا كانت ، قد جعل نشاط الدعوة عند المسلمين يتجلى في صور مختلفة تمام الاختلاف عن تلك التي تظهر في تاريخ البعوث التبشيرية المسيحية فليس هناك جمعيات للدعوة . ولا موكلون مدربون لهذا الغرض . كما أنه قلما نجد مواصلة الجهود في هذه السبيل .. إن عدم وجود فكرة عن نظام الكهنوت . أو أية نظرية ترى فصل المعلم الديني عن عامة المؤمنين . أو ترى ضرورة العكوف على تأدية الوظائف الدينية . والتصريح بها ، كل ذلك يجعل الاختلاف الأساسي في النظامين ، يظل قائما في كل مكان ، في وضوح وجلاء ....»

«ولم يكن النشاط الروحي للإسلام ، كما زعم عدد كبير جدا من الناس ، متمشيا مع سلطانه السياسي . بل على العكس من ذلك ، نجد فقدان السلطة السياسية والانتعاش المادي ، يعمل على إبراز أجمل الصفات الروحية التي تعد أصدق البواعث التي تحفز على القيام بأعمال الدعوة»[٥٨] .

---

(٥٨) الدعوة إلى الإسلام (ص٢٧ ، ٢٨ - ٣٠ ، ٦٢ ، ٤٤٩ ، ٤٥١ ، ٤٥٤ - ٤٥٧ ، ٤٦٩)

«ونستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام، إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة. وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على التسامح».

يقول «لايارد - Layard»: «إنه صادف مخيمًا من العرب المسيحيين في مدينة الكرك، شرقي البحر الميت، لا يختلفون عن العرب المسلمين بحال ما، سواء في الزى أو العادات».

«ولا شك أن التحول إلى الإسلام كان يقترن ببعض مزايا مالية معينة، ولكنه لم يكن من الممكن أن يكون للدين القديم إلا تأثير ضئيل على هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام لا لشيء إلا ليظفروا بإعفائهم من أداء الجزية، وعندئذ كان على الذين يتحولون إلى الإسلام أن يؤدوا بدلاً من الجزية الصدقات الشرعية، وهي الزكاة التي كانت تفرض سنويا على معظم أنواع الممتلكات المنقولة والعقارية .. وقد قل إلى حد بعيد ما كان يحدث من إغراء مادى للتخلص من عبء الضريبة عن طريق التحول إلى الإسلام، وذلك حين اضطرت بعض الاعتبارات المالية الحكومة العربية حول نهاية القرن الأول، إلى أن تشدد على المسلمين الجدد في أن يوالوا دفع الجزية حتى بعد دخولهم في زمرة المؤمنين».

ولم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة (الجزية) على المسيحيين، كما يريدنا بعض الباحثين على الظن، لونا من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام. وإنما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة، وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش، في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين .. ومن الواضح أن أي جماعة مسيحية كانت تعفى من أداء هذه الضريبة إذا ما دخلت في خدمة الجيش الإسلامي، وكان الحال على هذا النحو مع قبيلة الجراجمة، وهي قبيلة مسيحية كانت تقيم بجوار أنطاكية، سالمت المسلمين، وتعهدت أن تكون عونا لهم، وأن تقاتل معهم في مغازيهم، على شريطة ألا تؤخذ بالجزية، وأن تعطى نصيبها من الغنائم.

ولما اندفعت الفتوح الإسلامية إلى شمال فارس في سنة (٢٢هـ) أبرم مثال هذا الحلف مع إحدى القبائل التي تقيم على حدود هذه البلاد، وأعفيت من أداء الجزية مقابل الخدمة العسكرية.

ونجد أمثلة شبيهة بهذه للإعفاء من الجزية، في حالة المسيحيين الذين عملوا في الجيش أو الأسطول في ظل الحكم التركي، مثال ذلك ما عومل به أهل : ميغاريا – Migaris.

وهم جماعة من مسيحي ألبانيا الذين أعفوا من أداء الضريبة على شريطة أن يقدموا جماعة من الرجال المسلحين لحراسة الدروب على جبال Geraens Cithaeron التي كانت تؤدى إلى خليج كورنثه. وكان المسيحيون الذين استخدموا طلائع لمقدمة الجيش التركي، لإصلاح الطرق وإقامة الجسور، قد أعفوا من أداء الخراج، ومنحوا هبات من الأرض معفاة من جميع الضرائب. وكذلك لم يدفع أهالي Hydre المسيحيون ضرائب مباشرة للسلطان، وإنما قدموا في مقابلها فرقة من مائتين وخمسين من أشد رجال الأسطول التركي كان ينفق عليهم من بيت المال في تلك الناحية. وقد أعفي أيضا من الضريبة أهالي رومانيا الجنوبية، الذين يطلق عليهم Awmaloli وكانوا يؤلفون عنصرا مهما من عناصر القوة في الجيش التركي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين. ثم المرديون - Mirdites وهم قبيلة كاثوليكية ألبانية كانت تحتل الجبال الواقعة شمالي سكتار (Scatri)، وكان ذلك على شريطة أن يقدموا فرقة مسلحة في زمن الحرب. وبتلك الروح ذاتها لم تقرر جزية الرؤوس على نصارى الإغريق الذين أشرفوا على القناطر التي أمدت القسطنطينية بماء الشرب، ولا على الذين كانوا في

حراسة مستودعات البارود في تلك المدينة، نظرا إلى ما قدموا للدولة من خدمات. ومن جهة أخرى أعفى الفلاحون المصريون من الخدمة العسكرية على الرغم من أنهم كانوا على الإسلام، وفرضت عليهم الجزية في نظير ذلك، كما فرضت على المسيحيين».

«إن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق .. إن نظرية العقيدة الإسلامية تلتزم التسامح، وحرية الحياة الدينية لجميع أتباع الديانات الأخرى.

وعلى الرغم من أن صفحات التاريخ الإسلامي قد تلونت بدماء كثير من الاضطهادات القاسية، ظل الكفار، على وجه الإجمال، ينعمون في ظل الحكم الإسلامي بدرجات من التسامح لم تكن نجد لها مثيلا في أوروبا حتى عصور حديثة جدا. وإن التحول إلى الإسلام عن طريق الإكراه محرم، طبقا لتعاليم القرآن: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ (البقرة: ٢٥٦) ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩)، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ (يونس ١٠٠)

- وإن مجرد وجود كثير جدا من الفرق والجماعات المسيحية في الأقطار التي ظلت قرونا في ظل الحكم الإسلامي، لدليل

ثابت على ذلك التسامح الذى نعم به هؤلاء المسيحيون، كما يدل على أن الاضطهادات التي كانوا يدعون إلى معاناتها بأيدى الطغاة والمتعصبين، إنما كانت ناتجة من بعض ظروف خاصة وإقليمة، أكثر من أن تكون منبعثة من مبدأ مقرر من التعصب ....».

«... ولما هرب موسى بن ميمون (٥٢٩-٦٠١هـ/ ١١٣٥-١٢٠٤م) - الذى كان قد تظاهر بالدخول في الإسلام في عهد الموحدين، الذين كان حكمهم ينطوى على التعصب الديني إلى مصر، وأعلن هناك أمام الملأ أنه يهودى. اتهمه أحد فقهاء المسلمين من إسبانيا بالارتداد عن الإسلام، وطلب بأن يوقع عليه أقصى عقوبة يقضى بها الشرع لهذا الجرم. ولكن القاضى الفاضل عبد الرحيم ابن على (٥٢٩-٥٩٦هـ/ ١١٣٥-١٢٠٠م) - وهو من أشهر قضاة المسلمين، وكبير وزراء صلاح الدين العظيم (٥٣٢-٥٨٩هـ/ ١١٣٧-١١٩٣م) - ألغى هذا الحكم، وأعلن بصفة جازمة: أن رجلا قد أرغم على الدخول في الإسلام، لا يصح شرعا أن يعد مسلما.

وبهذه الروح نفسها، نجد «غازان» (٦٩٤-٧٠٣هـ/ ١٢٩٥-١٣٠٤م)[٥٩]، عندما اكتشف أن عبدة البوذية

(٥٩) هو غازى محمود، أحد سلاطين المغول، اعتنق الإسلام، وجعله دين الدولة، وشيد عددا من المؤسسات في تبريز.

الذين كانوا قد دخلوا في الإسلام في مستهل حكمه (حينما خربت معابدهم) لم يتحولوا إلى هذا الدين إلا تظاهرا ونفاقا - يسمح لجميع هؤلاء الذين كانوا جد راغبين في العودة إلى التبت، حيث يستردون حريتهم مرة أخرى بين مواطنيهم البوذيين، ويتبعون ديانتهم القديمة.

ويقص لنا «تافرنييه Tavernier»[٦٠] (١٦٠٥-١٦٨٩م) قصة مماثلة عن بعض يهود أصفهان الذين كان الحاكم قد اضطهدهم اضطهادا شديدا إلى حد أنه جعلهم يتحولون إلى الإسلام بالقوة والخديعة كلتيهما، ولكن الملك (الشاه عباس الثاني) (١٦٤٢-١٧٦٧م) أدرك أن القوة والرهبة وحدهما قد أرغمتهم على هذا التحول، فأذن لهم أن يستردوا ديانتهم، وأن يعيشوا في هدوء وأمان».

«... حتى الحاكم المجنون - الحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١١هـ/ ٩٩٦-١٠٢٠م) الذي حملت اضطهاداته كثيرا من اليهود والمسيحيين على أن يتركوا دينهم ويدخلوا في الإسلام - قد سمح فيما بعد لهؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام عن غير رغبة أن يعودوا مرة أخرى إلى دينهم؛ وأن يعيدوا بناء أماكن عبادتهم المخربة.

---

(٦٠) تافرنييه جان باتست: رحالة فرنسي، قام بست رحلات في آسيا، ووصل إلى جاوة وجزر الهند الشرقية. ومنحه الملك لويس الرابع عشر لقب «بارون». ومات في رحلته السابعة إلى الشرق.

لقد كان من السهل على أى حاكم من حكام الإسلام الأقوياء، أن يستأصل شأفة رعاياه المسيحيين أو ينفيهم من بلادهم، كما فعل الأسبان بالعرب، والإنجليز باليهود مدة أربعة قرون تقريبا .. وكان من الممكن تماما أن ينفذ سليم الأول (٨٧٥-٩٢٦هـ/ ١٤٨٠-١٥٢٠م) - فى سنة (١٥١٤م) - أو إبراهيم (١٠٤٩-١٠٥٨هـ/ ١٦٤٠-١٦٤٨م) - فى سنة (١٦٤٦م) - تلك الفكرة البربرية التى تصورها للقضاء على رعاياه المسيحيين - ولكن طبقة المفتى، الذين صرفوا أذهان سادتهم عن مثل هذا الغرض الذى ينطوى على القسوة، إنما فعلوا ذلك باعتبارهم أئمة الشريعة الإسلامية والتسامح الإسلامى.

إن المبدأ الذى وجد قبولا عظيما فى ألمانيا فى القرن السابع عشر، وهو أن لكل منطقة دينها الخاص - لم يقبله قط أى عاهل مسلم ...».

وقد استطاع «ميخائيل الأكبر Michael the Eldern» بطريق أنطاكية اليعقوبى، أن يحبذ فيما كتبه فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر، ما قرره إخوانه فى الدين، وأن يرى إصبع الله فى الفتوح العربية، حتى بعد أن خبرت الكنائس الشرقية الحكم الإسلامى خمسة قرون، وقد كتب يقول - بعد أن سرد اضطهادات «هرقل» (٦١٠-٦٤١م).

« .. وهذا هو السبب في أن إله الانتقام، الذى تفرد بالقوة والجبروت، والذى يديل دولة البشر كما يشاء، فيؤتيها من يشاء، ويرفع الوضيع - لما رأى شرور الروم الذين لجأوا إلى القوة، فنهبوا كنائسها، وسلبوا أديارنا في كافة ممتلكاتهم، وأنزلوا بنا العقاب في غير رحمة ولا شفقة، أرسل أبناء إسماعيل من بلاد الجنوب ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم. وفي الحق، أننا إذا كنا قد تحملنا شيئًا من الخسارة بسبب انتزاع الكنائس الكاثوليكية منا، وإعطائها لأهل خلقيدونية، فقد استمرت هذه الكنائس في حوزتهم. ولما أسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التى وجدت في حوزتها (وفي ذلك الوقت كانت قد انتزعت منا كنيسة حمص الكبرى وكنيسة حران). ومع ذلك لم يكن كسبا هينًا أن نتخلص من قسوة الروم وأذاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضدنا، وأن نجد أنفسنا في أمن وسلام » ..

« .. ونجد ركلدوس دى مونت كروسيس **Ricoldus de Monte Crucis** » - وهو مبشر دومينيقاني، زار الشرق في نهاية القرن الثالث عشر - ينطلق بالثناء على المسلمين، الذين كان قد اشتغل بين أظهرهم، يقول:

استولى علينا الدهش، كيف أن أعمالا تتصف بمثل هذا الكمال يمكن أن تحيا في ظل شريعة تصطبغ بمثل هذه

النزعة الإلحادية (كذا ؟ !) . لهذا نستعيد الآن في إيجاز أعمال العرب ، تلك المتصفة بالكمال .. من ذا الذى لا يعجب إذا تأمل جيدا أية عناية فائقة بالدراسة يمكن أن توجد بين العرب ، وأى إخلاص في الصلاة ، وأية رحمة بالفقير ، وأى تبجيل لاسم الله والأنبياء والأماكن المقدسة ، وأى وقار في أخلاقهم ، وفي معاملتهم للغرباء ، وأية مودة تربط بين جنسهم ؟ » .

« لقد كان الأخطل (١٩ - ٩٠ هـ / ٦٤٠ - ٧٠٨ م) وهو عربي نصراني - شاعرا للبلاط الأموى ... وكان القديس يوحنا الدمشقي (٥٥ - ١٢٢ هـ / ٦٧٥ - ٧٤٠ م) مستشار الخليفة عبدالملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٥ - ٧٠٥ م) .. وكان في خدمة الخليفة المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ - ٨٤٢ م) أخوان مسيحيان بلغا منزلة سامية عند أمير المؤمنين . أحدهما يدعى « سلموية » .. وأخاه « إبراهيم » .. وشغل الأول منصبًا يشبه منصب الوزير في العصر الحديث . وكانت الوثائق الملكية لا تتخذ صفة التنفيذ إلا بعد توقيعه عليها ، على حين عهد إلى إبراهيم بحفظ خاتم الخليفة . كما عهد إليه بخزانة بيوت الأموال في البلاد .. واختار عبدالملك بن مروان عالمًا مسيحيا من مدينة الرها ، يدعى « إثناس Athansias » مؤدبا لأخيه عبدالعزيز .. وفي نهاية القرن الثامن ، نرى رجلا يُدعى أبا نوح الأنبارى ، كاتب أبي موسى بن مصعب ، والى الموصل .. وفي عهد المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ / ٨٩٢ -

٩٠٢م) كان عمر بن يوسف والي الأنبار مسيحيًا .. ولقد عهد الموفق - وكان صاحب السلطان المطلق على أخيه المعتمد (٢٥٦-٢٧٩هـ/ ٨٦٩ ٨٩٢م) - بأمر تنظيم الجيش إلى مسيحي، يدعى إسرائيل، واتخذ ابنه المعتضد نصرانيا آخر كاتبا له: وهو ملك بن الوليد .. وفى عصر متأخر: تولى - فى أيام المقتدر (٢٩٥-٣٢٠هـ/ ٩٠٨-٩٣٢م) - نصرانى آخر أمر ديوان الجيش .. وكان نصر بن هارون مسيحيا، وكان كبير وزراء عضد الدولة البويهى (٣٣٧-٣٧١ / ٩٤٩-٩٨٢م).

وكان البطريق النسطورى «طيماوس **Timotheus**» يعقد المناظرات فى المسائل الدينية بحضرة الخليفة الهادى (١٤٤ ١٧٠هـ/ ٧٦١-٧٨٦م) وهارون الرشيد (١٤٩-١٩٣هـ/ ٧٦٦-٨٠٩م) .. ولما قدم شخص يدعى «يزدانبخت»، زعيم المانوية[٦١]، فى زيارة لبغداد، وعقد مناظرة مع المتكلمين المسلمين، وأفحمه فيها المتكلمون منهم، حاول الخليفة المأمون (١٧٠-٢١٨هـ/ ٧٨٦-٨٣٣م) أن يقنعه باعتناق الإسلام، ولكن «يزدانبخت» أبى ذلك، وقال: نصيحتك، يا أمير المؤمنين، مسموعة وقولك

(٦١) من الفرق والمذاهب الدينية الفارسية نسبة لـ«ماني» الذى ادعى النبوة (٢٤٢م) وهى تتخذ إلهين أحدهما للخير والثاني للشر.

مقبول، ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم». فلم يبد الخليفة شيئًا من الاستياء لإخفاق محاولته، ووكل به من حفظه خوفًا عليه من تعصب الغوغاء»[٦٢].

«.. وأما فيما يتعلق بالسواد الأعظم من هؤلاء المسيحيين العرب، فإن الأخبار الخاصة بزوال المسيحية من بين القبائل العربية النصرانية التي كانت تقيم في بلاد العرب الشمالية لاتزال بحاجة إلى شيء من التفصيل، والظاهر أنهم قد انتهوا إلى الامتزاج بالمجتمع الإسلامي الذى كان يحيط بهم عن طريق ما يسمونه «الاندماج السلمي» الذى تم بطريقة لم يحسها أحد منهم، ولو أن المسلمين حاولوا إدخالهم فى الإسلام بالقوة عندما انضووا بادئ الأمر تحت لواء الحكم الإسلامي لما كان من الممكن أن يعيش المسيحيون بين ظهرانيهم حتى عصر الخلفاء العباسيين».

«.. وإن مجرد بقاء الكنيسة المسيحية القومية في أفريقيا الشمالية مثل هذا الوقت الطويل ليدحض أى زعم بأن تحولهم إلى الإسلام قد قام على القوة والإكراه.....»[٦٣].

---

(٦٢) الفهرست (١/ ٣٣٨).

(٦٣) الدعوة إلى الإسلام (ص٦٨، ٧٠، ٧٢، ٧٥، ٨٢، ٨٨، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥، ١٥٣، ٤٦١، ٤٦٣، ٤٦٧).

كان الملك «أولاف ترايجفيسون Olaf Trygevesson (٩٦٣ - ١٠٠٠م) يقوم بذبح هؤلاء الذين أبوا الدخول في المسيحية، أو بتقطيع أيديهم وأرجلهم أو بنفيهم وتشريدهم. وبهذه الوسائل نشر الدين في «فيكن» بأسرها.

* ووصية القديس لويس (١٢١٤-١٢٧٠م) تقول: «عندما يسمع الرجل العامي أن الشريعة المسيحية قد أسيء إلى سمعتها، فإنه ينبغي ألا يذود عن تلك الشريعة إلا بسيفه، الذي يجب عليه أن يطعن به الكافر في أحشائه طعنة نجلاء».

* ولقد ظل الإسلام قائمًا بين «الباشغردية» من أهل المجر حتى سنة (١٣٤٠م)، حين أرغم الملك «شارل روبرت» جميع رعاياه، الذين لم يكونوا مسيحيين بعد، أن يعتنقوا الدين المسيحي أو يغادروا البلاد.

* وفي سنة (١٧٠٣م) جمع «دانيال بيتروفتش D. petrovich»، الأسقف الحاكم في ذلك الحين، القبائل وأخبرهم أن الأمل الوحيد لإنقاذ بلادهم ودينهم ينحصر في القضاء على المسلمين الذين يعيشون بين ظهرانيهم. وكان من أثر ذلك أن الذين لم ينقضوا عهد الإسلام وأبوا أن يدخلوا في المسيحية من مسلمي الجبل الأسود قتلوا في ليلة عيد الميلاد، في ثبات ورباطة جأش.

* وفى روسيا . سنة (٩٨٨م) - جهر «فلاديمير Vladimir» - ملك روسيا فى ذلك الحين - بالمسيحية وفى اليوم التالى لتعميده ، أصدر مرسومًا يقضي بأن يذعن الروس كافة ، سادة وعبيدًا ، أغنياء وفقراء للتعميد وفق طقوس الديانة المسيحية : وهكذا أصبحت المسيحية ديانة الروس .. ولم يفتح الباب أمام التدين بالإسلام - فى روسيا - إلا بعد أن صدر مرسوم سنة (١٩٠٥م) الذى ينص على التسامح الدينى .. أما قبل ذلك التاريخ ، فلقد حاولت الحكومة الروسية فرض المسيحية على رعايا المسلمين فى أوروبا - بما فى ذلك التتار - وكان القانون الجنائى الروسى يتضمن دائمًا عقوبات صارمة لهؤلاء الذين حادوا عن الكنيسة الأرثوذكسية ، ويعاقب كل شخص تثبت عليه تهمة تحويل مسيحى إلى الإسلام ، بتجريده من كافة الحقوق المدنية ، وبحبسه مع الأشغال الشاقة مدة تتراوح بين ثمانى سنين وعشر .

ولقد دونت الأخبار كثيرًا عن دخول الناس أفواجًا ، بعد صدور مرسوم الحرية الدينية سنة (١٩٠٥م) .. ولقد كان أكبر الفضل فى ذلك النجاح للدعوة الإسلامية راجعًا إلى مستوى الحياة الأخلاقية فى المجتمع الإسلامى ، الذى

كان أكثر رقيا. كما يرجع أيضا إلى شعور التآخي الذى كان يشيع فى هذا المجتمع، والذى كان أكثر تماسكا وقوة .. وكان هؤلاء الذين أسلموا يلقون فى قراهم عنتا واضطهادا بتسميتهم «الكلاب المختونين».

ولقد أخذ الخوف من رجال الكنيسة الأرثوذكسية كل مأخذ. حتى أقاموا جمعية خاصة تقوم بتوزيع منشورات دينية بين أهالي «القوقاز الأبخازى Abkhazes A» أملا فى مناهضة النفوذ الإسلامى.

* وفى الحبشة. اتخذ الملك «سيف أرعد» (١٣٤٢-١٣٧٠م) حاكم أمهرة - تدابير صارمة ضد المسلمين فى مملكته. تقضى بإعدام كل من أبى الدخول فى المسيحية أو نفيهم من البلاد .. وقد قيل: إن الملك «بئيد ماريام» (١٤٦٨-١٤٧٨م) قضى الجزء الأكبر من حكمه فى محاربة المسلمين الذين كانوا يقيمون على الحدود الغربية من مملكته .. وقد كان على مسلمى «هدية» أن يدفعوا جزية أخرى للملك. وهى أن يعطوه فى كل سنة بنتا ينصرها له. وجرت هذه العادة فى بلدهم بمقتضى معاهدة كان ملك الحبشة يحكم دائما بها .. ثم إنه حكم عليهم ألا يلبسوا عدة الحرب. ولا يمسكوا السيف. ولا يركبوا خيولهم بالسروج.

وإلا قتلهم وخرب مساجدهم .. ولقد كانوا مجبرين على تقديم الأموال إلى رسل الملك . ومعها البنت ، يخرجونها على السرير ، بعد تغسيلها وتكفينها بثوب والصلاة عليها ، بحسبانها قد ماتت !

* وقبائل الجلا والسومال ، أُدخلوا كرهًا فى الديانة المسيحية .. أرغمهم ملك الحبشة فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر .

* وفى سنة (١٨٧٨م) بعد حرب (١٨٧٥م) بين الحبشة ومصر - عقد الملك الحبشى «جون» مجمعًا يضم رجال الكنيسة الحبشية ، ونادوا به حكمًا أعلى فى المسائل الدينية ، فقرر وجوب الاقتصار على دين واحد فى كافة أنحاء المملكة ، وأعطى المسيحيون على اختلاف طوائفهم ، ما عدا اليعاقبة ، مهلة عامين ليصبحوا فيها متفقين فى الرأى مع كنيسة البلاد ، وألزم المسلمون بالتسليم فى خلال ثلاث سنين ، والوثنيون فى خلال خمس . وأذاع الملك مرسومًا بعد ذلك بأيام قليلة ، أوضح فيه أن مهلة السنوات الثلاث التى مُنحها المسلمون كانت قليلة الأهمية ؛ وذلك أنه لم يقتصر على إلزامهم ببناء كنائس مسيحية ، متى كانوا فى حاجة إليها ، ودفع العشور للقساوسة الذين فى مقاطعاتهم الخاصة ،

بل إنه أنذر كل الموظفين المسلمين بأن يختاروا في خلال ثلاثة أشهر بين قبول التعميد أو التخلي عن مناصبهم. وكان مثل هذا التنصير الإجبارى عديم الأثر بطبيعة الحال. ففى الوقت الذى تظاهر المسلمون فيه بالقبول كانوا فى الخفاء يؤكدون ولاءهم للإسلام.

وفى هذه الحملة أرغم الملك جون سنة (١٨٨٠م) مايقرب من خمسين ألفًا من المسلمين على التعميد .. كما أجبر عشرين ألفًا من أفراد إحدى القبائل الوثنية .. ونصف مليون من قبائل الجلا على اعتناق المسيحية..»[٦٥].

(٦٥) الدعوة إلى الإسلام (ص٣٠، ٣٢، ١٢٢، ١٣٥، ١٣٦، ١٤١، ١٤٣، ٢٢٣، ٢٢٦، ٢٧٤ - ٢٧٦، ٢٧٨ - ٢٨١، ٢٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٧).

-٤-

الدين والدولة

مقدمة

من الغرب وفدت علينا العلمانية، وذلك عندما جاءتنا في ركاب الغزوة الاستعمارية الأوروبية الحديثة..

فعن طريق الغزو الفكري.. ومحاولات كسر شوكة الإسلام بالعلمنة.. لتحويله عن منهاجه الشامل لكل ميادين الدين والدنيا.. والروح والمادة، والفرد والمجموع.. والأمة والدولة.. والآخرة والأولى.. كان التحدي العلماني لدين الإسلام..

لقد أراد الاستعمار الغربي - بالعلمانية - تحويل الإسلام عن هذا المنهاج الشامل - والأصيل - ليكون صورة من النصرانية التي تركت ما لقيصر لقيصر، واكتفت بما لله - خلاص الروح ومملكة السماء - وذلك ليستأثر الاستعمار القيصر - بدنيا المسلمين - الأرض والثروات - تاركا للإسلام الشعائر والطقوس في المحاريب!..

ولقد صنع الاستعمار الغربي - في مصانعه الفكرية - نخبة من المثقفين المتغربين، الذين صيغت عقولهم وفق مناهجه، ليبشروا بهذه العلمانية في بلاد الإسلام.. حتى إنك لو قلت: إن كل متغرب هو علماني.. وإن كل علماني هو متغرب، لما جاوزت الدقة بحال من الأحوال..

ولأن الأمة بفطرتها - ومعها علماء الإسلام ومفكروه ودعاة اليقظة الإسلامية - قد رفضوا هذه العلمانية الغربية.. فإن المعركة حولها قد ظلت مع هؤلاء المتغربين..

ولأن هؤلاء العلمانيين المتغربين لا يسمعون إلا لما هو غربي.. ولا يؤمنون إلا بما هو غربي.. ولا يرون الصواب إلا فيما هو آت من الغرب.. فلقد آثرنا أن نفتح أمام عقولهم أبوابا غربية.. لشهادات أوروبية وأمريكية، يقول أصحابها: إن الإسلام مختلف كل الاختلاف عن النصرانية.. فهو دين ودولة.. ودولته: مدنية، مرجعيتها الدين.. فلا هي بالدولة الكهنوتية الدينية الكنسية.. ولا هي بالدولة العلمانية اللادينية.. وإنما هو الإسلام المتميز: الذي يسوس دولة متميزة أيضا..

وذلك، عسى الله أن يهدي هؤلاء العلمانيين إلى رؤية حقيقة الإسلام.. فتزول عنهم مخاف «الدولة الكهنوتية» عندما يسمعون عن «دولة الإسلام».. فهؤلاء العلمانيون، هم جزء من أمة الإسلام، نحرص على الحوار معهم، لرأب الصدع الفكري الذي تعاني منه المجتمعات الفكرية في عالم الإسلام.. ولهذا: آثرنا أن نقدم في هذا المقام خمس شهادات غربية. لخمسة من علماء الاستشراق.. هم:

١ - العلامة داڤيد سانتيلانا (١٨٤٥ - ١٩٣١م)، الضليع في الفقه الإسلامي وفي القانون الغربي..

٢ - والعلامة شاخت (١٩٠٢ - ١٩٦٩م) وهو من أعلام الاستشراق الحديث..

٣ - والمستشرق برنارد لويس الذى شهد للإسلام برغم عدائه للإسلام والمسلمين.

٤ - والمستشرق السويسري مارسيل بوازار.

٥ - والمستشرق لامبتون (أ.ك.س)..

شهادة هؤلاء الخمسة، من أعلام الاستشراق الغربي، على تميز الإسلام بأنه دين ودولة.. ومدنية وقانون.. دونما جمود.. ولا رجعية.. ولا كهنوت.. سائلين المولى سبحانه وتعالى هداية المخالفين.. وشفاء القلوب والعقول، ولو عن طريق هذا «الدواء» الآتي من مصانع الغرب الفكرية، التي يقدرها إخواننا العلمانيون كل التقدير!.. ففي هذه الشهادات لون من «الحكمة.. التي هي ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها».. وكما أن الحكمة ضالة «المؤمنين».. فهي - أيضا - ضالة «العقلاء» من العلمانيين أو هكذا يجب أن تكون!.

أ.د. محمد عمارة

(١)

شهادة العلامة سانتيلانا

أما الشهادة الغربية الأولى، (الأولى في هذا الكتاب) فإنها لعالم غربي مرموق، هو حجة في تخصصه العلمي، وفي مكانته بين علماء الاستشراق. وفي الآثار العلمية التي أبدعها.. إنه العلامة «داڤيد دي سانتيلانا David de Saintillana» (١٨٤٥ - ١٩٣١م)..

وهو مستشرق إيطالي، ولد بتونس، وتخرج في جامعة روما، وأحرز درجة الدكتوراه في القانون.. ولقد تفقه - إلى جانب القانون الروماني والقوانين الغربية - في الفقه الإسلامي، وبخاصة في مذهبي الإمام مالك (٩٣ - ١٧٩هـ/ ٧١٢-٧٩٥م) والإمام الشافعي (١٥٠ - ٢٠٤ هـ/ ٧٦٧ - ٨٢٠م).. وذلك إلى جانب تاريخ الفلسفة.. والتاريخ الإسلامي..

وهو الذي درّس ووضع القانونين المدني والتجاري لتونس، وفق قواعد الشريعة الإسلامية، وبالاتساق مع القوانين الأوروبية - في حقبة الاستعمار الفرنسي لتونس - (١٨٩٦م).. كما درّس تاريخ الفلسفة الإسلامية واليونانية والسريانية - باللغة العربية - في الجامعة المصرية الأهلية -

سنة (١٩١٠م) .. ودرس في جامعة روما التاريخ الإسلامي وتاريخ الجمعيات الدينية الإسلامية.

ومن آثاره الفكرية - غير محاضراته - : «ترجمة وشرح الأحكام المالكية» و«الفقه الإسلامي المالكي ومقارنته بالمذهب الشافعي» في نحو (١٣٠٠ صفحة) - و«القانون والمجتمع» - في المقارنة بين الفقه الإسلامي والقوانين الأوروبية - و«القوانين المدنية والتجارية» - سنة (١٨٩٨م) وهو مصنف كبير وبحث جامع لفقه الحقوق الإسلامية.. وله أيضا: ملخص ابن الإنسان للشيخ طنطاوي جوهري» و«الخلافة والسلطان في الشرع الإسلامي» كما ترجم الجزء الثاني من كتاب «مختصر خليل» في الفقه المالكي - لابن إسحاق - وفيه مجموعة الأحكام المالكية الأكثر شيوعا في الحقوق المدنية والجزائية - مع تعليق عليه - سنة (١٩١٩م).

* وهذه الشهادة التي نقدمها هنا لهذا العالم الحجة، تؤكد على تميز الإسلام - الدين والشريعة - عن الأديان الأخرى، في:

١ - أن الإسلام دين ودولة، دون أن تكون دولته كهانة كنسية، تحكم بالحق الإلهي، كتلك التي عرفتها الحضارة المسيحية في أوروبا إبان عصورها الوسطى والمظلمة.

٢ - وأن الشـريعة الإسلامية متميزة بالقانون الجامع بين الأحـكام وبين منظومة القيم والأخلاق الدينية، والرابط بين المنفعة والمصلحة الدنيوية وبين الدين والجزاء الأخروى..

* ونحن نختار هذه الشهادة للعلامة «سانتيلانا» من بحثه عن «القانون والمجتمع» المنشور في الكتاب العمدة «تراث الإسلام» الذي أشرف على التخطيط له والتأليف فيه العلامة «سير. توماس أرنولد» (١٨٦٤ / ١٩٣٠م) - وهو الكتاب الذي ضم مجموعة من الدراسات العلمية الرصينة التي كتبها أساطين الاستشراق الأوروبي عن معالم الحضارة الإسلامية وإبداعات علماء الإسلام..

فهي شـهادة علم من أعلام الفكر - الغربي والإسـلامي - نأخذها من مصدر متميز وجامع لشـهادات أسـاطين علماء الاستشراق.. يقول العلامة «دافيد دي سانتيلانا»:

(أ) الدولة الإسلامية:

* «إن رأس المجتمـع الإسـلامي.. يعمـل بوصفـه نائب دولة أو رئيس حكومة.. أو بوصفه خليفة الرسول.. وخلفاء الرسـول ما هم بوارثي رسالته الروحية (وإن كان يُؤثر عنهم في الحقيقة صفة النيابة، أو الوكالة بتنفيذ رسـالته وتعضيد المصالـح الدينية والدّنيوية للمجتمع الإسلامى). لقد أبى «أبو بكـر» (٥١ق.هـ - ١٣هـ/ ٥٧٣ - ٦٣٤م) قبول لقب

«خليفة الله» واكتفى باسم «خليفة رسول الله»، ثم درج لقب «أمير المؤمنين» منذ زمن «عمر بن الخطاب» (٤٠ ق.هـ - ٢٣هـ / ٥٨٤ - ٦٤٤م). فحدد بكل وضوح صفة ممثل السلطة العليا، الذي هو في الحقيقة ليس عاهلا - (ملكا) - بل هو «أمير» نظرا للمدلول الأصلي للعبارة الرومانية: «رئيس الأقران»...

إن اسم الإمام، الذي يطابق بمدلوله لفظة **Antistes** أي: قائد الصلاة، بقي حتى الأخير عنوانا لأعظم وأسمى صفة في العاهل الإسلامي، وبكلمة أخرى، كانت وظيفته الدينية أصل جميع وظائفه الأخرى، وهي في الشريعة الإسلامية: «العدل، الجهاد، الجباية، تحكيم العادات والتقاليد».

فإذا ذكر الكُتاب لفظة «الإمام» غير موضحة، فإنهم يقصدون أمير الدولة مطلقا، ويريدون مصدر جميع السلطات التي تُصرف شئون المملكة كافة باسمه، وليس في هذه الأمور ما يضفي على الخليفة صفة القداسة أو يسمه بميسم الكهنوت، كما ادّعت بهذه السمة هيئات حاكمة معينة في تاريخ العالم.

والحقيقة هي أن سُلطة الخليفة - كرئيس ديني - لا يمكن أن تعدّ سلطة حبرية أو بابوية مثلا؛ فهو يتجرد تماما من صفة الكهنوت؛ لأن حكومة المسلمين ما كانت في أي زمن أو ظرف حكومة دينية **Hierarchy** ولم يوجد فيها تعاقب

رسولي، والإمام في سلطانه الدنيوي ليس سيدًا (ربًا).. فالأمير: وكيل جماعة المسلمين، وأعماله تستمد قوتها وقانونيتها من المبدأ القائل: إن الأمير يجب أن يضع نُصب عينيه مصلحة المجموع.

فلهذه الغاية «أُقر الأمراء على الناس». وكما يجب أن يقدم الوكيل حسابًا صحيحًا على من أنجزه لموكله وسيده، كذلك يتحتم على الخليفة أن يسترشد بالله...».

* «الزعيم والشعب: والإمام والجماعة، اصطلاحان بسيطان يجملان كل النظام السياسي الإسلامي، ويفسران معنى الدولة كذلك. إنه تمثيل الدولة وسلطة الحكومة التنفيذية، متمركزًا في شخص الخليفة الذي تحتم عليه وظيفته أن يمارس تلك السلطة عندما يكون القانون واضح المدلول صريحًا. فهو من هذه الناحية لا يملك أيَّ مقدرة على تحوير القانون، بل هو مضطر إلى تطبيقه بحذافيره كما في الأحوال التي لا يسوغ القانون للقاضي أن يجتهد؛ لكن حريته في فض القضايا التي لم يرد فيها نص، هي حرية غير محدودة؛ لأنه ليس وكيلا عاديًا، بل محل ثقة. كما أن تنفيذ القانون موكول إليه بصورة خاصة، وبجانب حريته هذه في التصرف القضائي، تمتد سلطته إلى شئون كثيرة عامة أخرى؛ كإدارة دفة الحرب، وتقسيم الغنائم؛

وفرض الضرائب على الأموال، وصرف أموال الدولة في شتى الوجوه، وتعيين العمال (الحكام) والموظفين...».

* «إن الرابطة التعاونية الموجودة بين الخليفة والشعب تبقى متينة وثيقة العُرى ما دام الخليفة صالحًا للقيام بواجبه في حماية المجتمع الإسلامي، فإذا لم يعد أهلا لمنح شعبه ما يريده منه، بطل سلطانه، وفسخ العقد شرعا بين المتعاقدين. ويتم هذا الفسخ والإلغاء عند العجز الجسماني أو عند فقدان الحرية: كوقوع الخليفة أسيرًا في يد المشركين والكفار...».

* «إن اختيار رئيس المجتمع الإسلامي لا يمكن تركه للظروف والصدف أو لأعمال العنف والطغيان. بل يجب أن يجري انتقاؤه بعد التفكير الملي والتأمل الحكيم الناضج، وتقوم بانتقائه تلك الصفوة المنتخبة من أهل الرأي، الذين هم وحدهم يقدرون أن المرشح للخلافة: صالح لملء هذا المنصب الجليل أم لا؟

فلا يمكن أن يكون مجموع الناخبين هو أمة المسلمين كلها، إنَّ الناخبين هم أولئك الذين عُرفوا بعلمهم ومنزلتهم وتجاربهم في أمور الدين والدنيا، وبأخلاقهم المتينة: هؤلاء وحدهم يصلحون لأن يكونوا المحكمين في هذا الشأن: وإليهم، أي إلى رجال السيف والقلم، يرجع أمر انتخاب الإمام، وأعني بهم مشاهير الشخصيات المدنية والعسكرية:

«الله» عند الإسلام. فالله هو الاسم الذي يطلق على السلطة العاملة في حقل المصلحة العامة. وعلى هذا المنوال يكون بيت المال هو «بيت مال الله» والجند هم «جند الله»، حتى الموظفون العموميّون هم «عمال الله»...».

.. وعبثا نحاول أن نجد أصولا واحدة تلتقي فيها الشريعتان الشرقية والغربية (الإسلامية والرومانية) كما استقر الرأي على ذلك..

إن الشريعة الإسلامية ذات الحدود المرسومة والمبادئ الثابتة لا يمكن إرجاعها أو نسبتها إلى شرائعنا وقوانيننا (الغربية)، لأنها شريعة دينية تغاير أفكارنا أصلاً، وقد يحصل في العادة خلطٌ بين ناحيتين. فالإسلام كالمسيحية أو كأي دين آخر له عقائد مخصوصة ينفرد بها، مما لا يمكن بالطبع أن يعرضها أولئك الذين نزلت فيهم إلى النقد والبحث، ولكن من الظلم والتجني أن نصمها بالجمود والشّدة، كما لو ألصقنا بالمسيحية التهمة نفسها؛ إذ يوجد في أيّ نظام ديني عظيم الخطر جليل الشأن شيء أكثر من محض العقيدة...».

أسس المجتمع الإسلامي :

* «وهي القانون الإلهي (الشريعة). إن طبيعة هذه الجمعية الملتفّة حول الدين، والمستكنة تحت حكم الله.

هي التي تحدد معنى الفقه والقانون، وهي بالنظر إلينا وإلى الأسلاف:

مجموعة من القواعد السائدة التي أقرها الشعب: إما رأسا وإما عن طريق ممثليه، وسلطانه مستمد من الإرادة والإدراك وأخلاق البشر وعاداتهم.

إلا أن التفسير الإسلامي للقانون هو خلاف ذلك. فإن صح أن الله هو رأس المجتمع الإسلامي وسائسه الأعلى، فالقانون لا شيء أمام إرادته. والقاعدة القانونية هي القاعدة التي يطبقها المشرع الأعظم (الله) على شعبه المختار. والخضوع لهذا القانون إنما هو واجب اجتماعي وفرض ديني في الوقت نفسه. ومن ينتهك حرمته أو يشق عصا الطاعة عليه لا يأثم تجاه النظام الاجتماعي فقط، بل ويقترف خطيئة دينية أيضا؛ لأنه «لا حق ثم لم ليس لله فيه نصيب»...».

«فكل مسائل الفقه كان مرجعها الأخير علم الكلام (اللاهوت)..

الإيمان الصحيح:

«هذا القانون، أو الشريعة، التي توزع العدالة بالقسطاس على الجميع بلا تفضيل، تستند إلى الإيمان القويم أساسا. فعلى المسلمين أن يفوا بالعهود التي يقطعونها على أنفسهم وليس لهم أن ينتفعوا بمال مسلم آخر لم يجزهم...».

«وهذا التفسير للإيمان القويم إنما هو تفسير خُلقي أدبي بصورة جوهرية ، حتى إنه ليرتفع إلى فكرة «المطلق» ومبدأ «الدولية» . ومن المدهش أن يكون ذلك أقرب لفهمنا من التفسير الألماني الإقطاعي للإيمان الصحيح ، ذلك التفسير الذي يرى الإيمان منبثقا من الولاء والخضوع الشخصي . ولذلك ، فإن شريعة الإسلام تفسح أوسع المجال لتحكيم الإرادة البشرية . وتعلق أعظم الأهمية على القصد القانوني ، لا على نص القانون الحرفي . إن إرادة البشر كافية مهما كانت لخلق رابطة قانونية . ولكن قلما كان بطلان أو صحة أي مبدأ قانوني مرهونا بأمر شكلي أو بنص حرفي في الشريعة الإسلامية ، يتجلى ذلك بمقارنته بما لا يحصى من القواعد الشكلية في قوانين الجرمان . فقاعدة : «الرضا في العقود يجعلها ملزمة» هي قاعدة جوهرية في نظر فقهاء القانون....» .

المساواة :

«تحريم الربا بأي شكل كان ، النفور من كل أنواع المضاربة ، بطلان أي اتفاق أو عقد غير مؤكد النتيجة ، كل هذه المميزات في الشريعة الإسلامية انبثقت من هذا الأصل وبنيت على المبدأ العام (المساواة) . وبكلمة أخرى : تكون العدالة رائدة المساواة في كل مرحلة من مراحلها ، والافتئات عليها إنما هو ضربٌ من المستحيل .

ولقد اعتاد الفقيه القانوني أن يضع نُصب عينيه تثبيت كفتي الميزان كلما رجحت إحداهما على الأخرى. أعني إلغاء وخنق كل محاولة ترمي إلى تطبيق النص الحرفي مدفوعًا «بخدمة العدالة» كما جرى علماء القانون عندنا على تسميته..».

* «.. ومن بين المسائل القانونية التي غنمناها من الشريعة الإسلامية، الأنظمة القانونية الخاصة بالشركة المحدودة (القيراط) وبعض المصطلحات القانونية الفنية في قانون التجارة، وإننا لو ضربنا صفحًا عن كل ما تقدم، فلا شك في أن المستوى الأخلاقي الرفيع الذي يسم الجانب الأكبر من شريعة العرب قد عمل على تطوير وترقية مفاهيمنا العصرية. وهنا يكمن فضل هذه الشريعة الباقي على مر الدهور..»

* «أيكون معنى أن الشريعة الإسلامية مرجعيتها دينية، أن الفكرة الدينية قد أعاقت تطور القانون الإسلامي؟..

إن هذا الاستنتاج ليس إلا سوء فهم لتلك الوحدة الفكرية التي يتمثل فيها مصدر قوة الإسلام الرئيسي.

إن علم القانون ليس إلا جزءًا من علم الكلام (الثيولوجيا)، وربما كانت الشريعة الإسلامية، قد صرحت بالثيوقراطية أكثر من الشريعة المسيحية بمقارنتها مع الحكم المدني،

ولكن يجب ألا ننساق كثيرًا وراء هذا التفسير ، فلو ازددنا تأملاً لوجدنا أن ما ذهبنا إليه هو المعنى الذي قصده فقهاء المسلمين .

إن الفارق بين حقوق الله وحقوق العباد ليس فيه من معنى أكثر من الفارق بين القانون العام والقانون الخاص . وللفكرة الدينية بلا ريب أثر عظيم ، ولكن ليس بالمقدار الذي يظنه المرء . هذا التأثير مستمد مع الصبغة الأخلاقية التي تسود القانون ، أي : العلاقة التي تقترب غالبًا لتوحد بين القواعد القانونية والتعاليم الأخلاقية توحيدًا تامًا . فأحكام الشركة والقرض وشروط الشهادة وعلاقة العبد بالسيد وعلاقة المدعي والمدعي عليه ، وكل اتفاق أو عقد يتهيأ فيه موضوع علاقة قانونية ذات صبغة أخلاقية ، لهو أسمى درجة من أن يكون محض منفعة . فالرهن مثلاً شكل من أشكال المعونة المتبادلة ؛ لأن المرتهن يعين المالك على الاحتفاظ بملكه ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة : ٢) وفي الحديث : «الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» (رواه الإمام أحمد) .

« .. وهكذا ترسم الأخلاق والآداب في كل مسألة حدود القانون . وبذلك جاء الحديث النبوي : «ماليس لله فيه سهم ليس للمرء فيه حق» . وسهم الله هو إرادته في منحه كل

شخص ما يستحقه، وليس له أن يجور على ما يعود لغيره، وإنا لنجد أنفسنا أخيرًا وقد بلغنا مرحلة «الحق المطلق»؛ الذي هو أساس المجتمعات المتمدنة قاطبة...».

* «... إن الفقه حقيقة اجتماعية، يتعلق قسم منها بالفرد وقسم بالمجتمع، فكل شيء لا ينضوي تحت لواء المنافع الشخصية يُطلق عليه اسم «حقوق الله»؛ لأن الله في الشرع الإسلامي يقوم مقام سلطة المدينة Givitas وهو المبدأ الروماني القديم. ومن الحقوق الإلهية، القوانين المتعلقة بالعتق والوصايا والأنكحة وصلة الرحم وقانون الجزاء وتحريم الربا. هذه القوانين لا يمكن التغاضي عنها أو التقليل من شأنها؛ لأنها متعلقة بمصلحة المجموع، أو بتعبير أصح «بالنظام العام»، وهي خارجة عن إرادة الفرد.

أما القسم الثاني من الحقوق، وهي الحقوق المتعلقة بالفرد وشئونه الخاصة، فتسمى «بحقوق العباد». فإذا جعلنا الحرية نقطة البدء (الحرية هي أولى القواعد في الشرع الإسلامي)، وجدنا فقهاء المسلمين قد وصلوا إلى هاتين النتيجتين:

١ - تجد الحرية حدودها في طبيعتها نفسها؛ لأن الحرية المطلقة معناها فناء البشرية، والحدود التي تقف عندها الحرية هي ما اصطلح على تسميتها: بالقواعد القانونية (الشريعة).

٢ - ليس في هذه الحدود اشتطاط أو غُلو ؛ لأن الغاية المتوخاة من فرضها هي المنفعة والصلاح والخير بأعظم ما يستطيع الفرد أو المجموع أن يجني منها تلك المنفعة - وهي الغاية التي تهدف إليها الشريعة - إنها أيضا محدودة ومقيدة .

إن لمحة خاطفة نلقيها على مختلف الأنظمة القضائية ، قد يكون لنا فيها بعض العون على تعريفنا بالقواعد العملية لهذه الشريعة .

لما كان الفرد خليفة الله في أرضه ، فقد وهبه خالقه ملكات تدرك الحقوق ، وأسماها حق المرء - بوصفه فردا - في السلامة والحرية . فالحرية هي الحق الطبيعي لكل مخلوق بشري ، أما الرق فهو استثناء لتلك القاعدة « كان آدم وحواء وكلاهما حر » .. من هذا المبدأ استخلص الفقهاء المبادئ الكثيرة .

فللمرء أن يقتني ما يشتهي ، ويصنع بماله ما يريد ؛ لأن متاع الدنيا جميعه خلق لاستعمال البشر وانتفاعه . ولكن الله ، مقرر حق الملكية والحيازة وضع لهذا الحق حدا . وأتاح الفرصة لكل امرئ في معرفة المقدار المخصص له من مصادر الثروة العامة ، صيانة للنظام الاجتماعي .

لكن يخطئ من يظن أن الملكية - بوصفها حقًا - إنما هي غير محدودة. فهي في الواقع تجد حدودها في طبيعتها نفسها، أو في الهدف الذي تسعى إليه.

إن الله وهب المرء متاع هذه الدنيا ليصلح بها حاله ويكفي حاجته، وبمعنى آخر ليحسن الانتفاع به لا ليبدده أو ليبعثره نزولا عند أهوائه ونزواته الطارئة.

فلو نظرنا إلى الشريعة الإسلامية المستوحاة من القرآن الكريم والعرف لوجدناها تتجاهل ما يسمى بـ« حق الاستعمال والتمتع» فهي ترى في كل صرف لا نفع فيه تبذيرًا وهو إثم بالنتيجة. فالسفه في نظر الشريعة هو نوع من الخلل العقلي يحجر على كل مُبتلٍ به شرعا. هذه الشريعة حريصة على الاعتدال والقسط في كل شيء واتباع الطريق الوسط في إنفاق الثروة، لكونه يتفق تمامًا مع حكمة الشارع وطبيعة الشريعة من حكمة الله في إغداق آلائه ونعمه على البشر...»

«ومما لا مراء فيه أن الشريعة لم تتدخل في جميع التفاصيل، حسبها أن تتناول عددًا معينًا من القضايا ذات الطابع القانوني البارز فتبحثها وتشرحها، وقديمًا قال المشرعون الرومان: «إن قوة القانون هي في الأمر والنهي، والسماح والعقاب». على أن الشريعة الإسلامية، ذات الطابع الديني، لم تلبث أن أضافت مبدأين قانونيين إلى ما سبق ذكره، وهما: المقبولات والمستهجنات. فإذا

أسقطنا القسم العقابي من الشق الأول وأضفنا إليه المبدأين الجديدين، تم لدينا أوجه خمسة للقانون السائد بشكله التام.

إن هذه المبادئ القانونية على تعدد أشكالها، تئول إلى غاية واحدة هي الرفاه العام (المصلحة). لذلك فليس لهذا القانون الإلهي مصدرا والبشري هدفا. إلا سعادة البشر ورفاهه. والعين النافذة لا يمكن أن تخطئ رؤية هذه الغاية وإن شق عليها أن تتوضحها لأول وهلة.

إن القانون السائد (الشريعة) - ومعناها بالعربية: «الطريق القويمة» - هو نظام لضروب أشكال النشاط البشرى الذي يهدف إلى تيسير الحاجات الدنيوية».

«إن الشريعة الجديدة ألغت القيود الصارمة والمحرمات المختلفة التي فرضتها شريعة موسى على اليهود، ونسخت الرهبانية المسيحية، وأعلنت رغبتها الصادقة في مسايرة الطبيعة البشرية، والنزول إلى مستواها، واستجابت إلى جميع حاجات الإنسان العملية في الحياة.

«يسروا ولا تعسروا». تلك هي التعاليم والأوامر التي كان النبي يبلغها إلى من أرسل إليهم ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦).

إن للإسلام بعض الميل إلى الصوفية، ولكن لا إلى الزهد، وبعبارة أجلى : إنه لا يقر تعذيب النفس وإماتتها بالتقشف وبسائر الوسائل الأخرى التي تضعف البدن وتكبت الغرائز البشرية الطبيعية، إنه يحض المؤمن على التمتع بـ «الطيبات» التي أنعم الله بها عليه، شريطة أن يقيم الحدود ويخضع للسنة التي وردت في القرآن. وهي ليست بالكثيرة ولا بالصارمة.

إن الشريعة الإسلامية تحبذ كل نشاط عملي مجد، فهي تشجع الزراعة والتجارة وكل أنواع العمل، وتعزر أولئك الطفيليين الذين يعيشون على كواهل غيرهم. وتحتم على كل فرد أن ينفق على نفسه من كدحه وكسبه، ولا تحتقر أي عمل متى أغنى صاحبه عن غيره وكفاه ذل السؤال.

يقول «رينان» (١٨٢٣ - ١٨٩٢م) : «الإسلام هو دين الإنسان، فروح الشريعة الإسلامية تتسم بطابع جلي، هو إفساح أرحب المجالات للأعمال البشرية».

«ولما كان الشرع الإسلامي يستهدف منفعة المجموع، فهو بجوهره شريعة تطورية، غير جامدة، خلافا لشريعتنا (الرومانية) من بعض الوجوه، ثم إنها علم «مادامت تعتمد على المنطق الجدلي الديالكتي. وتستند إلى اللغة، إنها ليست جامدة، ولا تستند إلى مجرد العرف والعادة، ومدارسها الفقهية العظيمة تتفق كلها على هذا الرأي فيقول

أتباع المذهب الحنفي : إن القاعدة القانونية ليست بالشيء الجامد الذي لا يقبل التغيير ، إنها لا تشبه قواعد النحو والمنطق ، ففيها يتمثل كل ما يحدث في المجتمع بصورة عامة ، وهي تتغير بتغير الظروف والأحوال ، والقانون أيضا عرضة للتبديل والتغيير نظرا للاستعمال والتطبيق . وتتفق المالكية مع الحنفية في هذا الصدد ويقولون : « المنفعة هي مبدأ الفقهاء والمشرعين » . ولقد أدرك الغرب بوضوح تام سر هذه المرونة ، وهو الاستعمال بلا ريب . فالمجتمعات بوصفها أعضاء حية تعترضها في حياتها تغييرات مستمرة . . . .

« إن أسس السلطة العظيمة التي منحها الفقهاء المسلمون للعرف والعادة هذه . إنما هي شكل من أشكال القواعد غير المكتوبة التي تكمن فيها القدرة على صنع القانون وتبديله وتحويره « ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن » فعندما يكون هذا الاستحسان (الاستعمال) ثابتا موافقا للنظام العام غير مخالف للأخلاق الحميدة أو مضاد لقواعد الشريعة العامة . كان له إذ ذاك قوة القانون . لا بل كان الجزء المتمم له . . .

« إن الشريعة لم تقتصر على قبول العرف وحده . بل أخذت تتبعه في كل تغيراته (القاعدة العامة تقتضي بأن تكون الممارسة والعادة مصدر كل قانون . تلك العادة التي لا تتغير إلا بعادة) » .

« تلك هي الميزات التي تسم الشريعة الإسلامية في كبد حقيقتها. قد نجرؤ على وضعها في أرفع مكان، وتقليدها أجل مديح علماء القانون. وهو خليق بها.

ومجمل القول: إنها سمت حتى أصبح علينا أن نترسم وجه مقارنة بينها وبين قواعد وإجراءات القوانين الإقطاعية السائدة (يقصد في الغرب) أيام ازدهرت الشريعة الإسلامية.

أمّا ما يفتقر إليه الشرع الإسلامي. فهو ما كانت تفتقر إليه جميع الشرائع التي سبقتها وعاصرتها وكثير من الشرائع التي لحقت بها، أعني وجود مسْحة من الفوضى وعجز في التبويب والتنظيم. تلك الأسباب التي أدت بالعرب إلى الضعف السياسي، وكانت في الوقت نفسه مصدر الضعف الذي تخلل نظامهم القانوني...»[67].

(٦٧) سانتيلانا: القانون والمجتمع. كتاب «تراث الإسلام» وص٤٠٩، ٤٣١، ٤١١، ٤١٢، ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٥، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٣٦، ٤٣٨، ٤١٦، ٤١٨، ٤١٣، ٤٣٨).

(٢)
شهادة العلامة شاخت

والشهادة الثانية (في هذا الكتاب) يقدمها واحد من أعلام المستشرقين الألمان، الذين مثلوا - إلى جانب المكانة المرموقة في الثقافة الغربية - حجة في الدراسات الاستشراقية بالدوائر الغربية. وهو المستشرق العلامة «شاخت - جوزيف shach.J» (١٩٠٢ - ١٩٦٩م)..

والذي شغل - بعد تخرجه في جامعتي «برسلاو» و«ليبزج» كرسي الأستاذية في جامعات: «فرايبورج» سنة (١٩٢٧م)، و«كونسبرج» سنة (١٩٣٢م)، و«الجامعة المصرية» سنة (١٩٣٤م)، و«أكسفورد» سنة (١٩٤٨م) و«الجزائر» سنة (١٩٥٢م)، و«ليدن» سنة (١٩٥٤م)، و«كولومبيا» سنة (١٩٥٧م)، سنة (١٩٥٨م).. كما شغل عضوية المجمع العلمي العربي بدمشق.. وكثير من المجامع والجمعيات العلمية.. كما أشرف على مجلة الدراسات الإسلامية.

وهو متخصص في الشريعة الإسلامية.. ومحقق لكثير من كتب الفقه الإسلامي .. ومترجم لكثير منها إلى الألمانية، مع كتابة الدراسات والتعليقات عليها - بالألمانية والإنجليزية والفرنسية - .. وله كذلك - مؤلفات في نشأة الفقه الإسلامي.. وتاريخه.. وفي تبويب أحكام الشريعة

الإسلامية على المذهب الحنفي.. وفي علم اجتماع القانون الإسلامي.. وفي علم الكلام الإسلامي.. كما حقق ونشر كثيرا من النصوص التراثية الإسلامية في الطب والتاريخ..

يشهد «شاخت» - شهادة الخبير الحُجة على:

- تميز الإسلام بأنه دين ودولة..
- تميز الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامي بالشمول..
- الوحدة والتنوع في الفقه الإسلامي..
- أن سلطة القانون الإسلامي هي فوق سلطة «الدولة».
- قوة تأثيرات الفقه الإسلامي في الثقافات القانونية التي جاورته أو اتصلت به أو انفتحت عليه..

يشهد «شاخت» على ذلك كله فيقول:

«إن النزاع بين الدين والدولة اتخذ أشكالاً مختلفة:

ففي المسيحية كان هناك صراع من أجل السلطة السياسية من جانب هيئة كنسية منظمة تنظيمًا متدرجًا ومتماسكا ينتهي إلى رياسة عليا، وكان القانون الكنسي أحد أسلحتها السياسية.

أما في الإسلام، فلم يكن هناك قط ما يشبه «كنيسة»؛ فالشريعة الإسلامية لم تستند مطلقا إلى تأييد قوة منظمة، وعلى ذلك فلم ينشأ قط في الإسلام اختبار حقيقي للقوى بين الدين والدولة.. وظل المبدأ القائل بأن الإسلام من

حيث هو دين ينبغي أن ينظم الناحية القانونية - في حياة المسلمين - قائمًا لا يتحداه أحد...».

ومن أهم ما أورثه الإسلام للعالم المتحضر قانونه الديني، الذي يسمى «بالشريعة».

والشريعة الإسلامية تختلف اختلافًا واضحًا عن جميع أشكال القانون، إنها قانون فريد في بابه.. إن الشريعة الإسلامية هي جملة الأوامر الإلهية التي تنظم حياة كل مسلم من جميع وجوهها وهي تشتمل على أحكام خاصة بالعبادات والشعائر الدينية، كما تشتمل على قواعد سياسية قانونية (بالمعنى المحدود) وعلى تفاصيل آداب الطهارة وصورة التحية وآداب الأكل وعيادة المرضى.

والشريعة الإسلامية هي أبرز ما يميز أسلوب الحياة الإسلامية، وهي لب الإسلام ولبابه..

والخصيصة الرئيسية التي تجعل التشريع الإسلامي على ما هو عليه، وتضمن وحدته مع كل ما فيه من تنوع، هي نظرته لجميع أفعال البشر وعلاقاتهم بعضهم ببعض، بما في ذلك ما نعده قانونيًا (jegal) على أساس المفهومات التالية: الواجب، والمندوب، والمتروك، والمكروه، والمحظور. وأدمج القانون بمعناه الدقيق في هذا النظام من الواجبات الدينية إدماجًا تامًا.

ذلك النظام. فإنها لم تتمثل تمثلا كاملا. كما أن العلاقات القانونية بين الناس لم تتحدد تحديدًا تامًا وتوضع في صورة واجبات دينية وأخلاقية. وقد احتفظ ميدان القانون بطابع فني خاص به أيضًا. وأمكن للاستدلالات القانونية أن تسير في طريقها الخاص.. ونتيجة لذلك، فهناك تمييز واضح بين المجال الديني الخالص والمجال القانوني بمعناه الخاص الحقيقي.

وبالرغم من أن التشريع الإسلامي قانون ديني، فإنه من حيث الجوهر لا يعارض العقل بأي وجه من الوجوه: فهو لم ينشأ من عملية وحي متواصل فوق العقل، وإنما نشأ التشريع الإسلامي من منهج عقلاني في فهم النصوص وتفسيرها؛ ومن هنا اكتسب مظهرًا عقليًا مدرسيًا (scholastic).. إن قواعد التشريع الإسلامي إنما تصدق بفضل وجودها فقط لا من أجل عقلانيتها (المجردة) وهي لا تدعو إلى مراعاة النص الحرفي للأحكام دون روحها.

والتشريع الإسلامي ذو منهج منظم، وهو يؤلف مذهبًا متماسكا، ونظمه المتعددة مترابطة بعضها مع بعض..

ويتجلى في الشريعة الإسلامية نموذج بليغ لما يمكن أن يسمى «قانون الفقهاء» (jurist's Law) فقد أنشأ هذا القانون، وطوره فقهاء متخصصون أتقياء بجهود خاصة..

إن التشريع الإسلامي يقدم مثالا لظاهرة فريدة يقوم

فيها العلم القانوني، لا الدولة، بدور المشرع، وتكون فيها لمؤلفات العلماء قوة القانون. وكان هذا يعتمد على توافر شرطين هما :

١ - أن العلم القانوني كان هو الضامن لاستقرار ذاته واستمراره.

٢ - وأن سلطة الدولة حلّت محلها سلطة أخرى (هي سلطة الفقه والفقهاء)، وكانت هذه السلطة من العلو بحيث فرضت نفسها على الحاكم والمحكوم.

وقد تحقق الشرط الأول بفضل مبدأ الإجماع الذي له السلطة العليا بين أصول الفقه الإسلامي. وحقق الشرط الثاني القول بأن أساس الشريعة الإسلامية هو حكم الله.

وفيما يتعلق بالشيعة - بصفة خاصة - فربما يُظنُّ أن نظريتهم السياسية كان لا بد لها من أن تودي إلى وضع نظرية (في الفقه) مختلفة في الجوهر عن غيرها، ولكن ذلك لم يحدث؛ ذلك لأن فقههم الوضعي (الاجتهاد) شأنه شأن فقه الخوارج، إنما هو على اتصال وثيق بفقه السنة، كما أن الجماعات التي أخذت بهذه المذاهب ظلت على اتصال وثيق أيضًا بعضهم مع بعض اجتماعيًا وثقافيًا في معظم العصور. ولم يتعرض التشريع الفقهي الإسلامي (لدى

أصحاب هذه المذاهب) إلا في تعديلات ظاهرة بعض الشيء كانت تقتضيها مذاهبهم الدينية الخاصة ..

إن التشريع الإسلامي قد أثر تأثيرا عميقا في جميع فروع القانون في إقليم الكرج (جمهورية جورجيا) ، وذلك خلال فترة تمتد من عصر السلاجقة إلى عصر الصفويين (٤٩٤هـ/ ١١٠٠م   ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م) . ثم إن هناك تأثير التشريع الإسلامي على قوانين أهل الديانات الأخرى ، من اليهود والنصارى الذين شملهم تسامح الإسلام وعاشوا في الدولة الإسلامية .

فبالنسبة للجانب اليهودي يبدو أن « موسى بن ميمون » (ت ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م) قد تأثر ببعض ملامح المؤلفات الإسلامية في تنظيمه للمادة القانونية في مدونته بعنوان « مشنة توراة » (Mishnah Torah) وهو عمل لم يسبقه إلي مثله أحد من اليهود . ويقول أيضا في تعليقه على المشنة الذي كتبه بالعربية (وذلك في تقديمه لما يسمى بالفصول الثمانية) يقول : إنه ، إلى جانب التلمود والمدراش ، قد أفاد من الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين وكثير غيرهم ، وإنه ينبغي على المرء أن يقبل الحقيقة من أى إنسان يقولها – لكن هذه المسألة كلها لم تبحث بحثا كاملا حتى الآن .

ومن جهة أخرى، فإنه بالنسبة للجانب المسيحي، فليس هناك شك في أن الفرعين الكبيرين من الكنيسة المسيحية الشرقية، وهما: اليعاقبة والمونوفيزية (Monphysites) (أصحاب الطبيعة الواحدة) والنسطوريون (Nestorians) لم يترددوا في الاقتباس بحرية من قواعد التشريع الإسلامي[٦٨].

---

(٦٨) شاخت: تراث الإسلام، بحث بعنوان: الشريعة الإسلامية، القسم الثالث - (ص ١١، ١٢، ٩، ١٥، ١٧، ٢٤، ٢٥، ٣٤، ٢٧-٢٩) وكتاب: تراث الإسلام، هذا هو مشروع لدراسات المستشرقين في مختلف مناحي تراث الإسلام. صنفه: شاخت، وبوزورث، ترجمة: د. محمد زهير السمهوري. تعليق وتحقيق: د. شاكر مصطفى، مراجعة: د. فؤاد زكريا، طبعة الكويت، سلسلة عالم المعرفة سنة (١٩٧٨م).

(٣)

شهادة برنارد لويس

والشهادة الثالثة هي للمستشرق الشهير «برنارد لويس» (Lewis,B) (١٩١٦م) وهو مستشرق معاصر إنجليزى الأصل .. أمريكي الجنسية والإقامة حاليا .. تخرج في جامعتي لندن وباريس ، وعمل أستاذا للتاريخ الإسلامي في جامعات لندن وكاليفورنيا .. وهو صاحب الدراسات الكثيرة في الفرق الإسلامية - وبخاصة الإسماعيلية - وفي التاريخ التركي الحديث .. وفي السياسة والديبلوماسية العربية الحديثة .. وفي التاريخ الاقتصادي للشرق الإسلامي .. وفي المقارنة بين الشيوعية والإسلام.

وبالرغم من أن هذا المستشرق الكبير - برنارد لويس - يهودي الأصل، ومُناصر للصهيونية، وشديد العداء والافتراء على المسلمين ودينهم وقضاياهم الوطنية والقومية .. وشديد الاستعداء لصانع القرار الأمريكي ضد الإسلام وأمته .. فإن ذلك كله لم يمنعه من أن يشهد للإسلام بالتميز بوصفه دينا ودولة .. وبالسماحة في الانتشار السلمي .. وبالعدل الذى تميز به الحكم الإسلامي مع الشعوب غير المسلمة .. بل والشهادة على الطابع الصليبي للحملات الاستعمارية التي تمددت بها أوروبا في العالم الإسلامي منذ اقتلاع الإسلام من الأندلس أواخر القرن الخامس عشر الميلادي.

يشهد «برنارد لويس» على ذلك كله، فيقول :

«لقد نادى مؤسس المسيحية أتباعه : أن : أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»..

أما مؤسس الإسلام فقد جعل من نفسه «قسطنطين» - (٢٧٤-٣٣٧م) - ففي حياته أصبح المسلمون جماعة سياسية ودينية كان الرسول سيدها المطلق، يحكم أرضًا وشعبًا، ويقضي بين الناس، ويجمع الضرائب، ويقود الجيوش، ويُسيِّر الدبلوماسية، ويخوض الحرب».

ولقد كانت الخلافة نظام حكم حدده الإسلام.. وحلَّ الدين مكان القرابة كأساس للهُوية الجماعية والولاء، كما حل محل العرف، أو أقره بوصفه قانون الجماعة.

وبينما كان شيخ القبيلة يحتل منصب الرئاسة على أساس الموافقة الطوعية للقبيلة، وهي موافقة يمكن إلغاؤها، فإن محمدًا ﷺ جاء إلى الحكم على أساس من الامتياز الديني المطلق، واستمد سلطته ليس من الطرف المحكوم، بل من الله.

ومن الأمور التي تسترعي النظر : أنه بينما تتحدث السياسة الغربية عن «المدينة» و«التاج» و«الدولة» أو «الشعب» كمصدر للسلطة، فإن الإسلام التقليدي يعَدّ الله هو المصدر النهائي للسلطة.. فالجماعة أمة الله، وممتلكاتها

مال الله، وكذلك الحال بالنسبة للجيش والغنائم الحربية، وأما أعداؤها فهم بالطبع «أعداء الله».

وبما أنه لا يوجد إلا إله واحد وقانون إلهي واحد، يجب أن يكون هنالك حاكم أعلى واحد على الأرض يمثل الله ويطبق القانون.

ففي عهد الخلفاء الراشدين نجد أن الحكومة هي المؤسسة الدينية، ولا يوجد غيرها.

لقد وجد الغزاة الجرمان في الغرب دولة ودينًا «سابقين لهم»، هما الإمبراطورية الرومانية والكنيسة المسيحية، وكل منهما قد تطور في اتجاهات مختلفة، بدءًا من أصول متباينة، واحتفظ كل منهما بمؤسساته وطبقاته الحاكمة وقانونه، وقد اعترف الغزاة بكليهما وقبلوهما وعبروا عن أهدافهم وحاجاتهم الخاصة بهم في إطار البنية المزدوجة للكيان الروماني والمسيحي.

أما العرب الفاتحون في الشرق الأوسط وشمالي إفريقيا، فقد جاءوا بدينهم، وأوجدوا نظام حكم خاص بهم، لا فرق فيه بين الكنيسة والدولة لكونهما شيئًا واحدًا. والرئيس المطلق لهذا النظام هو الخليفة. والواقع أنه لم يكن يوجد في المفهوم الإسلامي مقابل حقيقي لمثل تلك الأضداد: ديني ودنيوي، روحي وزمني، كهنوتي وعلماني، وحتى

المقدس والمدنس، ولم يظهر مثل هذا التضاد إلا بعد وقت طويل جداً، حين استحدثت كلمات جديدة للتعبير عن مفاهيم جديدة. أما في العهد الأول للإسلام، فلم تكن الثنائية التي تدل عليها تلك الكلمات معروفة؛ لذا لم يكن هنالك من كلمات للتعبير عنها.

ولقد قيل: إن الخليفة يجمع في آن واحد بين شخصيتي البابا والإمبراطور. على أن التشبيه مضلل، فلم تكن للخليفة وظائف بابوية أو حتى كهنوتية. ولم يكن يتلقى التعليم الرسمي رجال الدين من العلماء. ولم يكن واجبه عرض الدين ولا تفسيره، بل كان واجبه هو دعمه وحمايته، وإيجاد الظروف التي من شأنها أن تمكن الناس من العيش حياة إسلامية صالحة في هذه الدنيا، وبذلك يعدون أنفسهم للحياة الآخرة. ولتحقيق ذلك يتوجب عليه أن يحافظ على القانون والنظام ضمن حدود الإسلام، وأن يدافع عن هذه الحدود ضد الهجمات الخارجية، وكان من واجبه -- ما أمكنه ذلك توسيع تلك الحدود، حتى يصل العالم كله، عندما يحين الوقت، إلى اعتناق الإسلام.

والواقع أن الذي غزا أتراك آسيا الوسطى، لم يكن المسلمين، بل كان الإسلام ذاته.

فقد كان المتصوفون والمبشرون المتجولون، ومعظمهم من الأتراك، يتنقلون بين القبائل التي لم يتم إخضاعها فيما

وراء النهر، ينشرون الدين البسيط، دين الكفاح الذى ازدهر على الحدود بين الإسلام والوثنية.

وحين قال «ريتشارد نولز R. Knolles» وهو مؤرخ الأتراك فى عصر الملكة إليزابيث (١٥٣٣ - ١٦٠٣م) بأن الإمبراطورية التركية هى «الرعب الحالي للعالم»، كان يعبر بذلك عن الشعور العام فى أوروبا.. ففى حالة الصراع بين أوروبا والأتراك كان هناك ترفع وترمت من كلا الجانبين.. وكان الأتراك هم الجانب الأكثر تسامحا.

وعندما انتهى الحكم العثمانى فى أوروبا، كانت الأمم المسيحية التى حكمها العثمانيون خلال عدة قرون لا تزال هناك. بلغاتها وثقافاتها، ودياناتها وحتى، إلى حد ما، بمؤسساتها. كل هذه الأمور بقيت سليمة وجاهزة لاستئناف وجودها الوطنى المستقل. أما إسبانيا وصقلية فليس فيهما اليوم مسلمون أو ناطقون باللغة العربية..

إن الفلاحين فى المناطق التى غزيت (من الأتراك) قد تمتعوا، بدورهم، بتحسن كبير فى أوضاعهم، وقد جلبت الحكومة الإمبراطورية العثمانية الوحدة والأمن مكان الصراع والفوضى، كما ترتبت على الغزو نتائج اجتماعية واقتصادية مهمة.

ففي خلال حروب الفتح قُضي على قسم كبير من الأرستقراطية الوراثية القديمة المالكة للأراضي ، ومُنحت أملاكها التي لم يَعُد لها مالك على شكل إقطاعات للجنود العثمانيين ، على أن الإقطاعات في النظام العثماني كانت بصورة أساسية منحة تُعطي لصاحبها الحق في تحصيل العائدات ، وكانت من الناحية النظرية على الأقل ، تمتد طول الحياة أو لفترة أقصر ، ولكن كان الحق فيها يسقط عندما يتوقف صاحبها عن القيام بالخدمة العسكرية . ولم تكن تنطوي على حقوق وراثية ولا سيادة إقطاعية . من جهة أخرى . كان الفلاحون يتمتعون بنوع من الامتلاك الوراثي للأرض ، وكان النظام العثماني يحمي هذا التملك من التفتيت ومن تركيز الملكية معًا . وكان الفلاحون يتمتعون بقدر من الحرية في حقولهم أكبر بكثير من ذي قبل ، وكانت الضرائب التي يدفعونها تقدر بصورة مخففة ، وتجمع بطريقة إنسانية ، وذلك بالمقارنة بما كان يجري في أنظمة الحكم السابقة والمجاورة .

هذا الأمن والازدهار كان لهما دور كبير في جعل الفلاحين يتقبلون النواحي الأخرى الأقل جاذبية في الحكم العثماني . وهما يفسران إلى حد كبير الهدوء الطويل الذي ساد

الولايات العثمانية حتى تفجرت الأفكار القومية التي جاءت من الغرب .

وحتى عملية «الدواشـرمة Deushrime» - وهي عملية الجمع القسـرى لـلأولاد من بين الفلاحين المسـيحيين من أجـل تجنيدهم في الجيش العثماني وفـي خدمة الدولة - لم تخـل من نـواح إيجابية . فبهذه الوسـيلة ، كان أقل القرويين شـأنا يسـتطيع أن يرتقي إلـى أعلى المراكـز وأكثرها نفوذا في الإمـبراطورية (العثمانية) . وقد ارتقى الكثيرون بالفعل ، وأحضروا أسـرهم . معهم - وهو شـكل من أشـكال المرونة الاجتماعيـة كان مسـتحيلاً فـي المجتمعات الأرسـتقراطية للعالم المعاصر للعثمانيين - .

كانت الإمبراطورية العثمانيـة ، بالإضافة إلى كونها عدوًا خطـرًا ، ذات سـحر قـوى : كان المسـتاءون والطموحـون ينجذبـون إليهـا بالفـرص التى تتاح لهـم في ظل التسـامح العثمانـي . وكان الفلاحون المسـحوقون يتطلعون بأمل إلى أعداء أسـيادهم . وحتى «مارتن لوثر» (١٤٨٣ - ١٥٤٦م) في مؤلفه المسمى «النصح بالصلاة ضد الأتراك» الذى نشر سـنة «١٥٤١م» - قد حذر بأن الفقراء المضطهدين على يد الأمـراء وأصحاب الأملاك والمواطنين الجشـعين ، يفضلون

على الأرجح العيش في ظل الأتراك بدلا من المسيحيين من أمثال هؤلاء.

صحيح أن فرسان أوروبا قد حاربوا بشجاعة ضد الأتراك، لكن فلاحيهم لم يكونوا يهتمون بانتصارهم، وحتى المدافعون عن النظام القائم كانوا يعجبون بالفعالية السياسية والعسكرية للإمبراطورية التركية. وكان جزء كبير من الأدب الغزير الذى أنتج فى أوروبا حول التهديد التركى، يهتم بمزايا النظام التركي والحكمة الكامنة في تقليده.

عندما وصل «فاسكو داجاما» (١٤٦٩-١٥٢٤م) إلى «كلكوتا» قال إنه أتى بحثا عن المسيحيين والتوابل؛ وكان هذا تلخيصًا صادقًا للدوافع التي أرسلت البرتغاليين إلى آسيا، كما أنه يلخص، مع بعض التعديل، موقفهم من «الجهاد» الذى كانت رحلات (البرتغاليين)، بمعنى من المعاني، جوابًا متأخرًا عليه. كان الشعور الدينى قويًا لدى البرتغاليين الذين ذهبوا إلى الشرق؛ فكانت الرحلات الاستكشافية تُعَدّ نضالاً دينيًا، أى استمرارًا لحملة استعادة البلاد المحتلة والحروب الصليبية، وكفاحًا ضد العدو الإسلامي نفسه.

وعندما وصل البرتغاليون إلى المياه الشرقية كان خصومهم هم القوى الإسلامية لمصر وتركيا وفارس والهند، وكانت هيمنة هذه القوى هي التي أطاحوا بها.

وبعد البرتغاليين جاء الإسبان والفرنسيون والإنكليز والهولنديون، وقد أسسوا فيما بينهم سيطرة أوروبية غربية على إفريقيا وجنوبي آسيا دامت حتى القرن العشرين...»[٦٩]

(٦٩) برنارد لويس: السياسة والحرب، دراسة منشورة بكتاب «تراث الإسلام» القسم الأول (ص ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٣، ٢٧٩، ٢٨٦، ٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٢)، تصنيف «شاخت، و. بوزورث». ترجمة: د. محمد زهير السمهوري، تعليق وتحقيق. د. شاكر مصطفى. مراجعة: د. فؤاد زكريا. طبعة الكويت: سلسلة عالم المعرفة. سنة (١٩٧٨م).

(٤)

شهادة مارسيل بوازار

والشهادة الرابعة هي للمستشرق السويسري «مارسيل بوازار» الذي يشهد للإسلام بالتميز بوصفه دينًا ودولة معًا وللقانون الإسلامي بالتميز عن القانون الوضعي العلماني، سواء في المصدر .. أو في المقاصد .. الأمر الذي يعني تميز المنظومة القانونية في الحضارة الإسلامية، وخطر وخطأ محاولات علمنة القانون وحركة الحياة والاجتماع في عالم الإسلام لما في ذلك من مصادمة للتصورات الفلسفية للإسلام إزاء الكون .. ولمكانة الإنسان في هذا الوجود - كما يحددها الإسلام.

يشهد «مارسيل بوازار» على هذا التميز والامتياز الإسلامي، فيقول:

«ومن المفيد أن نذكر فرقًا جوهريًا بين الشريعة الإسلامية والتشريع الأوروبي الحديث. سواء في مصدريهما المتخالفين أو في أهدافهما النهائية.

فمصدر القانون في الديمقراطية الغربية هو: إرادة الشعب.

وهدفه: النظام والعدل داخل المجتمع.

أما الإسلام، فالقانون صادر عن الله.

وبناءً عليه يصير الهدف الأساسي الذي ينشده المؤمن هو البحث عن التقرب إلي الله، باحترام الوحي، والتقيد به.

فالسلطة في الإسلام تفرض عددًا من المعايير الأخلاقية..

بينما تسمح في الطابع الغربي بأن يختار الناس المعايير حسب الاحتياجات والرغبات السائدة في عصرهم.."[70].

(٧٠) ثروت أحمد عبد الوهاب. الإسلام في الفكر الغربي (ص ٨١-٨٣)، طبعة القاهرة، سنة (١٩٩٣م)، وانظر كتابنا: الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية (ص ٣٧)، طبعة القاهرة سنة (١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م).

(٥)

شهادة لامبتون

وعلى هذا الدرب - درب تميز الإسلام بأنه دين ودولة، ومنهاج شامل للحياة .. وامتيازه - مع ذلك - بالرفض للكهانة التي عرفتها الدولة الكنسية الأوروبية .. على هذا الدرب تأتي الشهادة الخامسة للمستشرق «لامبتون» (أ. ك. س) .. الذي يقول:

* «إن الدين - في الإسلام - لم يكن منفصلا عن السياسة، كما أن السياسة لم تكن منفصلة عن الأخلاق .. ولقد تبلورت في الدولة الإسلامية - بالتدريج - مجموعة من الأفكار السياسية الإسلامية»..

* «إن سلطة الإمام كانت، ببساطة، تفويضًا يهدف إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، والدفاع عنها، فقد ورث عن الرسول ﷺ السلطتين القضائية والتنفيذية فحسب، أما السلطة التشريعية، فلم يكن له منها شيء، بل إن سلطته في الاجتهاد كانت محدودة، إذ إن هذه السلطة، فيما يبدو، قد آلت إلى الأمة في مجموعها، بالرغم من أن الإجماع يميل إلى حصرها في العلماء..»[٧١].

---

(٧١) لامبتون: الفكر السياسي عند المسلمين دراسة منشورة بكتاب «تراث الإسلام» القسم الثالث (ص ٣٣، ٣٤، ٤٩). تصنيف «شاخت» و«بوزورث». ترجمة: د. محمد زهير السمهوري. تعليق وتحقيق: د. شاكر مصطفى. مراجعة د. فؤاد زكريا، طبعة الكويت، سنة (١٩٧٨م).

(٦)
خلاصة فى خاتمة

وإذا جاز لنا - فى ختام هذه الشهادات - أن نقدم خلاصة لما كتبه هؤلاء المستشرقون الكبار عن :

- طبيعة السلطة فى الدولة الإسلامية .

- وتميزها عن جميع السلطات فى الدول التى عرفتها الحضارات الأخرى .

- وعن القانون الإسلامى ، وفقه الشريعة الإسلامية المتميز عن القوانين الأخرى - من حيث الفلسفة والمقاصد - فإننا نقدم هنا خلاصة هذه الشهادات - بنصوص أصحابها فى هذه الخاتمة لهذه الشهادات .

- ١ -

«إن رأس المجتمع الإسلامى يعمل بوصفه نائب دولة ، أو رئيس حكومة .. أو بوصفه خليفة الرسول .. وخلفاء الرسول ما هم بوارثى رسالته الروحية (وإن كان يؤثر عنهم فى الحقيقة صفة النيابة أو الوكالة بتنفيذ رسالته ، وتعضية المصالح الدينية والدنيوية للمجتمع الإسلامى) .. وليس فى هذه الأمور ما يضفى على الخليفة صفة القداسة ، ويسمه بميسم الكهنوت - كما ادعت بهذه السمة هيئات حاكمة معينة فى تاريخ العالم .

إن سلطة الخليفة كرئيس ديني - لا يمكن أن تعد سلطة حبرية أو بابوية مثلاً، فهو متجرد تماما من سلطة الكهنوت ؛ لأن حكومة المسلمين ما كانت في أى زمن أو ظرف حكومة دينية، ولا يوجد فيها تعاقب رسولي . . والإمام، في سلطانه الدنيوى، ليس سيداً (ربًا) . . إنه وكيل جماعة المسلمين، وأعماله تستمد قوتها وقانونيتها من المبدأ القائل : إن الأمير يجب أن يضع نُصب عينيه مصلحة المجموع، وكما يجب أن يقدم الوكيل حسابا صحيحا على ما أنجزه لموكله وسيده. كذلك يتحتم على الخليفة أن يسترشد بالله.

والخليفة لا يملك أى مقدرة على تحوير القانون، بل هو مضطر إلى تنفيذه بحذافيره.

إن الرابطة القانونية الموجودة بين الخليفة والشعب تبقى متينة وثيقة العُرى ما دام الخليفة صالحا للقيام بواجبه في حماية المجتمع الإسلامي، فإذا لم يعد أهلاً لمنح شعبه ما يريده منه، بطل سلطانه، وفسخ العقد شرعا بين المتعاقدين . . ».

- ٢ -

«إن اختيار رئيس المجتمع الإسلامي لا يمكن تركه للظروف والصدف، أو لأعمال العنف والطغيان ؛ بل يجب أن يجرى انتقاؤه بعد التفكير الملى والتأمل الحكيم الناضج، وتقوم بانتقائه تلك الصفوة المنتخبة من أهل الرأى، الذين

هم وحدهم يقدرون أن المرشح للخلافة صالح لملء هذا المنصب الجليل أم لا؟

فلا يمكن أن يكون مجموع الناخبين أمة الإسلام كلها. إن الناخبين هم أولئك الذين عرفوا بعلمهم، ومنزلتهم وتجاربهم في أمور الدين والدنيا، وبأخلاقهم المتينة، هؤلاء وحدهم يصلحون لأن يكونوا المحكمين في هذا الشأن. وإليهم - أي إلى رجال السيف والقلم - يرجع أمر انتخاب الإمام، وأعني بهم مشاهير الشخصيات المدنية والعسكرية أصحاب الحل والعقد، هؤلاء مخولون، باسم المجتمع كله، أن يشترطوا بالاشتراك شكل الرباط أو الواجب الذي تنبثق منه سلطة الأمير، ويعينون مقدار الطاعة الواجبة له من الرعية».

- ٢ -

* «وإن الشريعة الإسلامية، ذات الحدود المرسومة والمبادئ الثابتة، لا يمكن إرجاعها أو نسبتها إلى شرائعنا وقوانيننا (الغربية) لأنها شريعة دينية تغاير أفكارنا أصلا. فالفقه والقانون بالنسبة لنا (نحن الغربيين) هو مجموعة من القواعد السائدة التي أقرها الشعب، إما رأسا وإما عن طريق ممثليه، وسلطانه مستمد من الإرادة والإدراك وأخلاق البشر وعاداتهم.

إلا أن التفسير الإسلامي للقانون هو خلاف ذلك .. فكل مسائل الفقه الإسلامي مرجعها الأخير علم الكلام (اللاهوت) .. وهي تستند إلى الإيمان القويم أساسا .. والأخلاق والآداب هي التي ترسم حدود القانون في كل مسألة من المسائل .. والخضوع لهذا القانون إنما هو واجب اجتماعي وفرض ديني في الوقت نفسه ، ومن ينتهك حرمته أو يشق عصا الطاعة عليه لا يأثم تجاه النظام الاجتماعي فقط ، بل ويقترف خطيئة دينية أيضا . والشريعة الإسلامية توزع العدالة على الجميع ، بلا تفضيل .

* «وإن المستوى الأخلاقي الرفيع الذي يسم الجانب الأكبر من الشريعة الإسلامية قد عمل على تطوير وترقية مفاهيمنا العصرية ، وهنا يكمن فضل هذه الشريعة الباقي على مر الدهر .

* «ومع هذا ، فإن شريعة الإسلام تفسح أوسع المجال لتحكيم الإرادة البشرية ، وتعلق أعظم الأهمية على القصد القانوني ، لا على نص القانون الحرفي» .

* «وإن المرجعية الدينية للشريعة الإسلامية لم تعق تطور القانون الإسلامي .. فهو بجوهره شريعة تطورية غير جامدة ، تتغير بتغير الظروف والأحوال .. والقانون أيضا - في هذه الشريعة - عُرضة للتبديل والتغيير نظرا للاستعمال والتطبيق .

* إن أسس السلطة العظيمة التي منحها الفقهاء المسلمون للعرف والعادة، إنما هي شكل من أشكال القواعد غير المكتوبة التي تكمن فيها القدرة على صنع القانون وتبديله وتحويره «ما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن». فعندما يكون الاستحسان (الاستعمال) ثابتا موافقا للنظام العام: غير مخالف للأخلاق الحميدة أو غير مضاد لقواعد الشريعة العامة، كان له إذ ذاك قوة القانون، لا بل كان الجزء المتمم له.

* والفارق بين حقوق الله وحقوق العباد ليس فيه من معنى أكثر من الفارق بين القانون العام والقانون الخاص. وللفكرة الدينية بلا ريب أثر عظيم، ولكن ليس بالمقدار الذي يظنه المرء، هذا التأثير مستمد من الصبغة الأخلاقية التي تسود القانون، أي: من العلاقة التي تقترب غالبا لتوحد بين القواعد القانونية والتعاليم الأخلاقية توحيدا تماما.

وكل اتفاق أو عقد يتهيأ فيه موضوع علاقة قانونية ذات صبغة أخلاقية لهو أسمى درجة من أن يكون محض منفعة.

وليس هذا القانون الإسلامي، الإلهي مصدرًا، والبشرى هدفا، إلا سعادة البشر ورفاهه.. لقد ألغت الشريعة الإسلامية القيود الصارمة والمحرمات المختلفة التي فرضتها شريعة موسى على اليهود، ونسخت الرهبانية المسيحية، وأعلنت رغبتها الصادقة في مسايرة الطبيعة البشرية، والنزول إلى مستواها، واستجابت لجميع حاجات الإنسان العملية في الحياة..».

- ٤ -

« وأول قواعد الشرع الإسلامي . ونقطة البدء فيه هي الحرية » .

ولقد وصل الفقهاء في الحرية إلى نتيجتين :

١ - تجد الحرية حدودها في طبيعتها نفسها ؛ لأن الحرية المطلقة معناها فناء البشرية ، والحدود التي تقف عندها الحرية هي الشريعة (القواعد القانونية) .

٢ - وليس في هذه الحدود اشتطاط أو غُلو ؛ لأن الغاية المتواخاة من فرضها هي المنفعة والصلاح بأعظم ما يستطيع الفرد أو المجموع أن يجني منها تلك المنفعة - التي هي أيضا محدودة ومقيدة .

ولما كان الفرد هو خليفة الله في أرضه . فقد وهبه خالقه ملكات تدرك الحقوق ، وأسماها حق المرء - بوصفه فردًا في السلامة والحرية . فالحرية هي الحق الطبيعي لكل مخلوق بشري ، أما الرق فهو استثناء لتلك القاعدة .

فللمرء أن يقتني ما يشتهي ، ويصنع بماله ما يريد ؛ لأن متاع الدنيا جميعه خُلق لاستعمال البشر وانتفاعه ؛ ولكن الله : مقرر حق الملكية والحيازة ، وضع لهذا الحق حدًّا ، وأتاح الفرصة لكل امرئ في معرفة المقدار المخصص له من مصادر الثروة العامة ، صيانة للنظام الاجتماعي .

فالشريعة الإسلامية حريصة على الاعتدال والقسط في

كل شيء، واتباع الطريق الوسط في إنفاق الثروة، لكونه يتفق تمامًا مع حكمة الشارع وطبيعة الشريعة من حكمة الله في إغداق آلائه ونعمه على البشر.

ولقد تحرز على وضع الشريعة الإسلامية في أرفع مكان، وتقليدها أجل مديح علماء القانون .. وهو خليق بها ..»

(من شهادة «سانتيلانا»).

- ٥ -

«ومن المفيد أن نذكر فرقًا جوهريًا بين الشريعة الإسلامية والتشريع الأوروبي الحديث، سواء في مصدريهما المتخالفين أو في أهدافهما النهائية.

فمصدر القانون في الديمقراطية الغربية هو: إرادة الشعب؛ وهدفه: النظام والعدل داخل المجتمع.

أما في الإسلام، فالقانون صادر عن الله، وبناء عليه يصير الهدف الأساسي الذي ينشده المؤمن هو البحث عن التقرب إلى الله، باحترام الوحي، والتقيد به .. فالسلطة في الإسلام تفرض عددًا من المعايير الأخلاقية .. بينما تسمح في الطابع الغربي، بأن يختار الناس المعايير حسب الاحتياجات والرغبات السائدة في عصرهم».

من شهادة «مارسيل بوازار»

- ٦ -

* «لقد عرفت المسيحية النزاع بين الدين والدولة .. وكان هناك صراع من جانب الكنيسة من أجل السلطة السياسية.

وكان القانون الكنسي أحد الأسلحة السياسية للكنيسة في هذا الصراع.

أما في الإسلام، فلم يكن هناك قط ما يشبه «كنيسة». والشريعة الإسلامية لم تستند مطلقًا إلى تأييد قوة منظمة، وعلى ذلك فلم ينشأ قط في الإسلام اختبار حقيقي بين الدين والدولة.. وظل المبدأ القائل بأن الإسلام من حيث هو دين ينبغي أن ينظم الناحية القانونية في حياة المسلمين - قائمًا لا يتحداه أحد».

- ٧ -

* «ومن أهم ما أورثه الإسلام للعالم المتحضر قانونه الديني - الشريعة».

والشريعة الإسلامية، تختلف اختلافًا واضحًا عن جميع أشكال القانون ... إنها قانون فريد في بابه .. إن الشريعة الإسلامية هي جميع الأوامر الإلهية التي تنظم حياة المسلم من جميع وجوهها، وهي تشتمل على أحكام خاصة بالعبادات والشعائر الدينية، كما تشتمل على قواعد

سياسية وقانونية. وعلى تفاصيل آداب الطهارة وصور التحية وآداب الأكل. وعيادة المرضى .. ومع ذلك، فهناك تميز واضح بين المجال الديني الخالص والمجال القانوني بمعناه الخاص الحقيقي..

والشريعة الإسلامية هي أبرز ما يميز أسلوب الحياة الإسلامية، وهي لب الإسلام ولبابه..

* وبالرغم من أن التشريع الإسلامي قانون ديني، فإنه من حيث الجوهر لا يعارض العقل بأى وجه من الوجوه، فهو لم ينشأ من عملية وحي متواصل فوق العقل، وإنما نشأ التشريع الإسلامي من منهج عقلاني في فهم النصوص وتفسيرها. ومن هنا اكتسب مظهرًا عقليًا مدرسيًا، وقواعد التشريع الإسلامي لا تدعو إلى مراعاة النص الحرفي للأحكام دون روحها..

ويتجلى في الشريعة الإسلامية نموذج بليغ لما يمكن أن يسمى قانون الفقهاء. فقد أنشأ هذا القانون وطوره فقهاء متخصصون أتقياء بجهود خاصة..

* إن التشريع الإسلامي يقدم مثالاً لظاهرة فريدة يقوم فيها العلم القانوني، لا الدولة، بدور المشرع، وتكون لمؤلفات العلماء قوة القانون..

ولقد اعتمد هذا على شرطين :

أولهما : أن العلم القانونى كان هو الضامن لاستقرار ذاته واستمراره ..

وثانيهما : أن سلطة الدولة حلّت محلها سلطة أخرى (هى سلطة الفقه والفقهاء) وكانت هذه السلطة من العلو بحيث فرضت نفسها على الحاكم والمحكوم ..

وقد تحقق الشرط الأول بفضل مبدأ الإجماع الذى له السلطة العليا بين أصول الفقه الإسلامى، وحقق الشرط الثانى القول بأن أساس الشريعة الإسلامية هو حكم الله.

* ولقد أثر التشريع الإسلامى تأثيرا عميقا فى جميع فروع القانون .. كما أثر على قوانين أهل الديانات الأخرى: من اليهود والنصارى، الذين شملهم تسامح الإسلام، وعاشوا فى الدولة الإسلامية .. فلم يترددوا فى الاقتباس بحرية من قواعد التشريع الإسلامى ...».

(من شهادة «شاخت»)

- ٨ -

* «إن الدين، فى الإسلام، لم يكن منفصلاً عن السياسة، كما أن السياسة لم تكن منفصلة عن الأخلاق .. ولقد تبلورت فى الدولة الإسلامية - بالتدريج - مجموعة من الأفكار السياسية الإسلامية ..

إن سلطة الإمام كانت ببساطة. تفويضًا يهدف إلى تطبيق الشريعة الإسلامية والدفاع عنها. فقد ورث (الإمام) عن الرسول ﷺ السلطتين القضائية، والتنفيذية فحسب، أما السلطة التشريعية فلم يكن له منها شيء، بل إن سلطته في الاجتهاد كانت محدودة، إذ إن هذه السلطة. فيما يبدو، قد آلت إلى الأمة في مجموعها، بالرغم من أن الإجماع يميل إلى حصرها في العلماء ...».

(من شهادة «لامبتون»).

وبعد

هكذا شهد هؤلاء العلماء - وهم من أبرز أساتذة الاستشراق - على تميز الإسلام:

تميز طبيعة السلطة في النظام السياسي الإسلامي عن النظم الكهنوتية .. وعن النظم العلمانية جميعًا .. فهي سلطة مدنية ذات رسالة إسلامية ومرجعية دينية..

- وتميز الفقه الإسلامي - فقه الشريعة الإسلامية وقانونها. عن القوانين الوضعية بمصدره الإلهي، ورسالته الأخلاقية التي ترسم الحدود لهذا القانون الذي يبتغيا - في ذات الوقت - تحقيق المنفعة الإنسانية، والمصلحة الشرعية المعتبرة للمجتمع الإسلامي..

وتميز القانون الإسلامي بالسلطة التي جعلت سلطانه فوق سلطان الدولة .. فتحرر القانون - بذلك - من سلطان الأهواء البشرية. وذلك لأول مرة في تاريخ التشريع القانوني .. الأمر الذي عكس وجسد سلطة الإجماع، أي: سلطة الأمة .. فحقق مع استقلالها عن الدولة علوها عن هذه الدولة أيضا ..

الأمر الذي يستوجب من الباحثين والعلماء والمفكرين النظر إلى النموذج الإسلامي - في السياسة .. والتشريع .. والحضارة - بوصفه نموذجا متميزا، لا يجوز صبه في القوالب الأخرى، لا من حيث المصادر .. ولا الأهداف - أو التجربة التاريخية التي جسدت هذا النموذج الإسلامي في حضارة الإسلام. (٧٢)

---

(٧٢) انظر في هذه الشبهات ... طبعة دار السلام - القاهرة.

المصادر والمراجع

* د. أحمد عبدالوهاب : الإسلام في الفكر الغربي، طبعة القاهرة. سنة (١٩٩٣م).

* سانتيلانا : القانون والمجتمع، منشور بكتاب (تراث الإسلام)، ترجمة جرجيس فتح الله طبعة بيروت. سنة (١٩٧٣م).

* شاخت: تراث الإسلام، طبعة بيروت، سنة (١٩٧٨م).

* لامبتون : الفكر السياسي عند المسلمين، منشور بكتاب (تراث الإسلام)، طبعة الكويت، سنة (١٩٧٨م).

* لويس - برنارد : تراث الإسلام، طبعة الكويت، سنة (١٩٧٨م).

* د. محمد عمارة : الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية، طبعة القاهرة، سنة (٢٠٠٣م).

الفهارس

هدية مجلة الأزهر لشهر شعبان
١٤٣٦ هجرية

magazine.azhar.eg

مطابع [illegible] التجارية - قليوب - مصر